سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾

بِالْعُقُودِ: بالعهود المؤكدة الوثيقة

الأَنْعَامِ: الإبل والبقر والضأن والمعز.

غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ: غير مستحليه فهو حرام.

وَأَنْتُمْ حُرُمٌ: وأنتم محرمون بالحج أو العمرة.

لاَ تُحِلُّوا: لا تنتهكوا.

الشَّهْرَ الحَرَامَ: الأشهر الأربعة الحرم.

الهَدْيَ: ما يهدى من الأنعام إلى الكعبة .

القَلاَئِدَ: ما يقلد به الهدي علامة له.

آمِّينَ البَيْتَ: قاصدينه وهم الحجاج والعمار.

وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ: لا يحملنكم أو لا يكسبنكم.

شَنَآنُ قَوْمٍ: بغضكم لهم .

إن حياة المؤمن هي حياة التزام وانضباط ؛ فبالرغم من كونه حراً ، فإنه يتخذ من ذاته إنساناً مسئولاً ملتزماً ؛ اعترافاً بولاية الله وسلطته العليا عليه ، إذن فكلما أراد أن يعالج أمراً من الأمور ، سواءً أكان يتصل بحق الله أم بحق العباد ، فلا يعالجه تبعاً لهواه، متحرراً من كل قيدٍ شرعي أو ضابطة أخلاقية ، بل خاضعاً لوصايا الله عز وجل، ومن ثم فهو لا يأكل إلا ما أحله الله من المآكل ، ولا تمتد يده أبداً إلى ما حرمه الله منها ، وهو يروض نفسه على التسليم والإذعان المطلق حتى ولو نُهي في مناسبة ما عن بعض المباحات ، كما يتضح من الأحكام الواردة بشأن الاصطياد في حالة الإحرام ، أو القتال في الأشهر الحرم وهو يحترم كل شيء صار بمثابة علامة على حقيقة دينية معينة ؛ لأن احترام شيء كهذا هو احترام للدين بعينه ، وإنه إذْ يفعل ذلك كله فإنما يفعله بدافع الخوف من الله ، وليس بدافع آخر سواه.

وربما يعمل المرء على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه في الظروف المعتادة ، ولكن عندما تتغير هذه الظروف يتحول إلى إنسان آخر يُنال ما كان من قبل ، وهذا يحدث عندما ينال منه أحد خصومه ويستثير حفيظته ، فإذا بالذي كان يخشى الله يتجرد فجأة من مخافة الله ، وبالتالي ينسى أو يتناسى كل حدود العدل والإنصاف ، ولا يعود لديه بعدئذٍ هم يشغل باله سوى محاولة التشفي من خصمه ذاك و النكاية به بأية صورةٍ ممكنةٍ، غير أن هذا النوع من التحركات العدوانية لا يجوز عند الله تعالى البتة ، حتى ولا مع أولئك المعاندين الذين كانوا قد تصدوا لمنع عباد الله من ممارسة عمل مقدس كزيارة المسجد الحرام.

وإنه لو أخذ بعض الناس في التعاون مع شخصٍ قام باتخاذ خطواتٍ عدوانيةٍ من هذا النوع ، فإن ذلك يندرج ضمن التعاون الإجرامي الأثيم ! في حين ينبغي على عباد الله المتقين حقاً ألا يتعاونوا إلا على أعمال الخير والصلاح وحدها ، وإن من أصعب

الأمور في هذه الدنيا ، هو التعاون مع صاحب الحق ، ونبذ التعاون مع الذي ليس على الحق ، إلا أن هذا العمل الصعب هو الذي يتوقف عليه بالذات مصير الإنسان الأخروي سلباً أو إيجاباً !!

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

وَالدَّمُ: الدم المسفوح وهو السائل.

وَلَحْمُ الخِنزِيرِ: يعني الخنزير بجميع أنواعه.

وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ: ما ذكر عند ذبحه اسم غيره تعالى .

وَالْمُنْخَنِقَةُ: الميتة بالخنق.

وَالْمَوْقُوذَةُ: الميتة بالضرب.

وَالْمُتَرَدِّيَةُ: الميتة بالسقوط من علو.

وَالنَّطِيحَةُ: الميتة بالنطح.

وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ: ما أكل منه فمات بجرحه.

مَا ذَكَّيْتُمْ: ما أدركتموه وفيه حياة فذبحتموه.

النُّصُبِ: حجارة حول الكعبة يعظمونها.

تَسْتَقْسِمُوا: تطلبوا معرفة ما قسم لكم.

obeikandl.com

بِالأَزْلامِ: قداح معلمة معروفة في الجاهلية.

ذَلِكُمْ فِسْقٌ: خروج عن طاعة الله إلى معصيته.

اضْطُرَّ: ألجأته الضرورة للتناول منها.

مَخْمَصَةٍ: مجاعة شديدة.

مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ: مائل إليه بتجاوز قدر الضرورة.

من الحيوانات ما لا تصلح لحومها أن تكون غذاءً للإنسان كالخنزير ، كما أن جسم الحيوان المباح أكله يحتوي على عناصر غير صالحةٍ للغذاء الإنساني ، والدم من جملة هذه العناصر غير الصالحة ، ولقد حدد الإسلام طريقةً خاصةً لذبح الحيوان تتكفل باستنزاف دمه على نحوٍ كاملٍ ، وأما الطرق الأخرى لإرهاق روح الحيوان ، ما عدا الذبح الشرعي ، فهي غير كفيلةٍ بذلك ، بحيث إن الدم لا يلبث أن يحتقن ويترسب في لحمه، ولنفس هذا السبب فقد تم تحريم كل أنواع الميتة.

وقد حرمت الشريعة من اللحوم ما يشوبه شيء من الشرك والعقائد الوثنية ، كالحيوانات التي تُذبح بغير اسم الله ، أو الذبائح التي يُقصد بها التقرب من غير الله إلا أن يكون الإنسان مضطراً لذلك ، كأن يقف الإنسان بين أمرين إما الهلاك وإما الأكل من هذه الحيوانات المحرمة ، فله إذن أن يختار الغذاء الحرام على الموت، وهذا من سعة رحمة الله وعظيم فضله على العباد!!

وقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ يعني أن الله تعالى قد بين لكم ما ينفعكم من الأحكام والتشريعات ، وذلك بالإعلان عن تمام نزول القرآن ، على أمة محمدٍ ﷺ والحقيقة هي أن الدين الإلهي أُنزل على الإنسان في صورته الكاملة في كل العصور، ولم يبعث الله تعالى بدينٍ ناقصٍ إلى البشرية قط .

ولقد أقام الله الأمة المؤمنة بالقرآن العظيم على أسسٍ وركائز متينةٍ للغاية ، وزودها

بإمكاناتٍ وقوى ذاتيةٍ هائلة ، حتى أصبحت في مأمنٍ من كل خطرٍ خارجي يتهدد سلامتها، فإذا أصابتها نكسة أو بلاء كان ذلك ناشئًا عن نقائصها وأمراضها الداخلية ، وليس عن المؤامرات والهجمات الخارجية ، وإن أكبر ضمان للتخلص من الأمراض والنقائص الداخلية هو سيادة خشية الله الدائمة على أفراد الأمة!

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾

الطَّيِّبَاتُ: ما أذن الشارع في أكله.

الجَوَارِحِ: الكواسب للصيد من السباع والطير.

مُكَلِّبِينَ: معلمين لها الصيد.

وَطَعَامُ: ذبائح اليهود والنصارى.

وَالمُحْصَنَاتُ: العفائف والحرائر.

أُجُورَهُنَّ: مهورهن.

مُحْصِنِينَ: متعففين بالزواج عن الزنا.

غَيْرَ مُسَافِحِينَ: غير مجاهرين بالزنا.

مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ: مصاحبي خليلات للزنا سرا.

حَبِطَ عَمَلُهُ: بطل ثواب عمله السابق.

لقد أُحل للإنسان أن يأكل كل شيء تراه عين الفطرة طيباً ونظيفاً، كما أُحل له أكل لحوم جميع تلك الحيوانات التي جُبلت على طبائع ملائمة لطبائع البشر، ولكن بشرط ألا يكون قد تسرب إليها أي فساد شرعي أو طبي بسبب من الأسباب الخارجية الطارئة، وبما أن الإنسان لم يكن بإمكانه أن يحدد هذا المبدأ بواسطة عقله وحده، لذا فقد تفضل الله تعالى ببيانه على وجه التحديد والتفصيل، والسر في تحليل ما يصيده الحيوان المدرب على الاقتناص إنما يكمن في أنه يُمسك الصيد على صاحبه، فكأنه قد تعلم سجيةً من السجايا الآدمية، وأصبح بذلك ينوب مناب الإنسان في مجال الصيد،

ومهما تم إيضاح فعل القوانين المتعلقة بالحرام والحلال وتفصيلها فإن إرادة المرء الذاتية هي التي تقوده في النهاية إلى فعل شيءٍ ما أو تركه، فليس المرء إذن تحت رقابة القانون، بل هو بنفسه رقيب على ذاته، فلو أن المرء لم يكن يرغب في تنفيذ القانون عملياً لوجد إلى الهروب منه طرقاً شتى برغم إيمانه الظاهري به، وإنه ليس هناك شيء يبعث المرء على الالتزام بالقانون ومراعاته الشاملة لروحه وجوهره الحقيقي سوى الخشية الإلهية، ولذلك أعقب سرد المحرمات و المحللات بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾.

وكما بين الله ما يحل من المطعومات وما يحرم، بين كذلك ما يحل من النساء وما يحرم على المسلم، فالمسلم يحل له أن يتزوج المحصنات من المؤمنات، كما يحل له أن يتزوج المحصنات من نساء أهل الكتاب بشروط معينة وحكمة هذا التشريع هي أن المرأة مجبولة على طبيعة التأثر والانفعال، مما يفتح إمكانية اعتناقها لدين الإسلام نتيجة تأثرها بسلوك زوجها المسلم، وتعرفها المباشر على المبادئ النبيلة السامية التي تسود المجتمع الإسلامي.

وقوله : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ ﴾ يعنى أنه لا قيمة للعمل ما لم يكن مقترناً بالإيمان ، فإنما العمل المقبول هو الذي يكون خالصاً لوجه الله تعالى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

الْغَائِطِ: موضع قضاء الحاجة (كناية عن الحدث)

لاَمَسْتُمُ النِّسَاء: واقعتموهن أو مسستهم بشرتهن.

صَعِيدًا طَيِّبًا: ترابا ، أو وجه الأرض طاهرا.

حَرَجٍ: ضيق في دينه وتشريعه.

الغاية من الصلاة هي تطهير المرء من السيئات والفواحش ، والوضوء هو الاستعداد أو التأهب الخارجي لذلك التطهر الداخلي ، فحينما يريد المرء تأدية الصلاة يعمد أولاً وقبل كل شيءٍ إلى الماء ، حيث إن الماء هو نعمة جد عظيمة ، وهو أفضل وسيلةٍ لغسل كل أنواع القذارة والنجاسة ، وهكذا فإن الصلاة هي الأخرى عين ربانية، ينغمس فيها المرء فيطهر نفسه من أدران العواطف الرذيلة والأفكار الخبيثة القذرة .

وإذ يصب المرء الماء على يديه ، وهو يبدأ عملية الوضوء ، فكأنما هو يدعو الله بلسان عمله قائلاً : ((يا إلهى ! أعوذ بك أن تتلوث يداي هاتان بالسوء أبداً ، وأرجوك أن

تغسلها وتنظفها مما قد ارتكب بها من المنكرات حتى الآن »، ثم هو يتمضمض ويستنشق، ويغسل وجهه، فيجد نفسه يتضرع إلى الله بلسان حاله قائلاً: «يارب! باعد بيني وبين كل خطاياي، فاغفر لي ما تناولته بفمي هذا من طعامٍ حرامٍ، وما تكلمت به بلساني هذا، من كلامٍ فاحشٍ بذيءٍ، ما شممت بأنف من روائح الخبائث وما رأيت بعينيَّ هاتين من منظر سوءٍ بغيضٍ عندك»، ثم إذا مسح رأسه بيديه المبللتين بالماء انصهر كيانه كله تلقائياً في بوتقة الدعاء القائل: «يا إلهى طهّر قلبي من كل ما نويته من سوء، ونقِّ ذهني من آثار ما دبرته من خطط ومشاريع خاطئة منحرفة، وأعطني قلباً سليماً نقياً، وذهناً صافياً مستقيماً»، ثم إذا غسل رجليه، تحول عمله ذاك طلباً منه إلى جناب ربه، فكأنه يسأله وقتئذ أن يتكرم بغسل رِجْليه مما علق بهما من غبار السيئات، وأن يوفقه للسير على طريق الحق والعدل توفيقاً لا ينحرف معه عن ذلك الطريق القويم أبداً، وهكذا يصير الوضوء بأكمله بمثابة دعاءٍ عملي للمرء، ويتلخص ذلك الدعاء في قوله: «اللهم اجعلني تواباً عن الذنوب، واجعلني متطهراً من الفحشاء والمنكر »، وفي الظروف العادية يكفي الوضوء وحده لإيجاد الشعور بالطهارة لدى المرء، ولكنَّ حالة الجنابة حالة غير عادية، لذا فالتطهر منها لا يتم بالوضوء، بل بغسل جميع البدن (أى الاغتسال) فإذا كان الوضوء غُسْلاً جزئياً صغيراً، فإن الغُسل هو وضوء كبير شامل، فإذا لم يجد المسلم الماء، أو كان في استعماله ضرر محتم، فإن الله رفع عنه الحرج وشرع له التيمم لتجديد الشعور بالطهارة.

إن الأساليب الميسرة للوضوء والغسل هي من نعم الله العظيمة، إذْ من خلالها تم ربط الطهارة الشرعية بذوق النظافة الطبيعي، وإباحة الاكتفاء «بالتيمم» فى حالة العذر هى نعمة مزيدة على ذلك، فإنها تحول دون أن نتجه نحو الغلو فى الدين، ذلك الداء الذي ابتُلي به أتباع الأديان الأخرى.

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

وَمِيثَاقَهُ: عهده.

شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ: شاهدين بالعدل.

وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ: لا يحملنكم، أو لا يكسبنكم.

شَنَآنُ قَوْمٍ: بغضكم لهم.

يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ: يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك.

الإيمان هو عهد يُعقد بين العبد وربه عز وجل، فالعبد يقطع على نفسه وعداً بأنه سيمارس حياته في هذه الدنيا على أساس من تقوى الله وخشيته الدائمة، وبالمقابل يضمن الله لعبده أنه سيوفر له أسباب النجاح والسعادة في الدنيا والآخرة،

وللوفاء بهذا العهد الإيماني، لابد من أن يتوافر في العبد شرطان أساسيان: أولهما هو: أن يصبح ((فواماً لله))، ومعنى ذلك أن يبذل قصاراه للعمل الدائم على تنفيذ وصايا الله وامتثال أوامره، وأن يصير كيانه بحيث يقدم في كل مناسبة الإجابة الصحيحة التي ينبغي أن يتقدم بها العبد إلى ربه، فإذا أجال بصره في أرجاء هذا الكون، امتلأ قلبه وذهنه روعةً وتعظيماً لقدرة الله وجلاله، ، وإذا نظر إلى وجوده هو وجد أن

حياته كلها فضل من الله ونعمة ، وإذا تحركتْ مشاعره تحركتْ من أجل الله تعالى ، وإذا تركزت اهتماماته على شيء ، فلا تتركز إلا على الذات الإلهية ، كما يجب أن يكون حبه خالصاً لله وحده ، ومخاوفه كلها مرتبطةً بالله ، وأن تكون أعماق وجوده معمورةً بذكر الله، وأن يخلص عبادته وطاعته لله ؛ فيبذل كل ما يملكه في سبيل الله عن طيب نفس ويجد في هذا الحقيقة سعادته، والشرط الثاني للاستقامة على العهد والوفاء بحقه هو : التعامل مع العباد بالعدل ، ومعنى العدل أن تعطي كل شخصٍ ما يستحقه في واقع الأمر من غير نقصٍ ولا زيادةٍ ، وأن تلتزم بالحق دون الاندفاع وراء هوى النفس في كل الشئون والمعاملات .

وعلى العبد أن يروض نفسه على الالتزام الدائم بالحق والعدل ، فلا يتخلى عنه أبداً، حتى و هو يتعامل مع أعداء الدين ، وأنصار الباطل ، حيث تتجدد خصومات الماضي ، وتحاول صرفه عن جادة العدل والإنصاف !!

إن الله يتجلى في هذه الدنيا من خلال آياته وبراهينه الواضحة القاطعة ، فإذا ظهر البرهان الإلهي بوضوحٍ ، وأخذ المرء في المماحكة والمجادلة الكلامية بدلاً من الإيمان به، فقد كذب بآية الله ، وهؤلاء سيُلاقون عند الله عذاباً شديداً ، وأما الذين آمنوا بها ، فإن الله سيُعطيهم أجراً عظيماً ونعيماً أبدياً.

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ

عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

نَقِيباً: أمينا كفيلا.

وَعَزَّرْتُمُوهُمْ: نصرتموهم أو عظمتموهم

قَرْضاً حَسَناً: احتسابا بطيبة نفس.

يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ: يغيرونه أو يؤولونه بالباطل.

وَنَسُوا حَظاً: تركوا نصيبا وافرا.

خَائِنَةٍ: خيانة وغدر، أو فعلة خائنة.

لقد أُخذ من بني إسرائيل، على يد نبيّهم موسى - عليه الصلاة والسلام - عهد بممارسة حياة العبودية والطاعة لله، وانتخب اثنا عشر نقيباً من أسباطهم الاثنى عشر، لكي يشرفوا على سير حياتهم الدينية، وبموجب هذا العهد كان على بني إسرائيل أن يقيموا الصلاة؛ لتقوية روابطهم بالله، ويؤدوا الزكاة تطهيراً لهم وتزكية، كما أوجب عليهم أن ينصروا رسله، وأن يبذلوا في سبيل الدين الإلهى كل ما يملكون من رخيص وغال، وإنهم لن يكونوا جديرين بمعية الله ونصرته، ولا مستحقين لأن يطهرهم الله من سيئاتهم فيؤهلهم للدخول فى أجواء الجنة اللطيفة المعطاءة، إلا بعد قيامهم بإنجاز الواجبات على النحو المطلوب، وإقامة النظام الاجتماعي على منهج الله، فإن الجنة ينالها الناس بالعمل الصالح وبفضل الله ورحمته.

وهذه الأعمال التى أخذ الله ميثاق بني إسرائيل عليها هي أعمال الدين الجوهرية الأساسية، فإنها تمثل ذلك الطريق المستقيم الذي يؤدى بجميع البشر الذين يسلكونه إلى الله وإلى الجنة.

غير أن الأمم الأمينة على الكتاب السماوي حين يتسرب إليها الفساد، لا تلبث أن تنحرف يميناً وشمالاً، وعندئذ يتغير مفهوم الدين بسبب التفسيرات المزعومة الباطلة،

ويخوض القوم في مناقشات فرعية عقيمة حول موضوع العبادة ، ويبحثون عن طرق للنجاة سهلةٍ توصل المرء إلى المطلوب من غير اهتمام بتأدية حقوق العباد ، ويثيرون معارك دنيويةً فارغةً لا تمت إلى الحق بصلة قريبة ولا بعيدة ، ويفتعلون وجوهاً شتى للنفقات الدنيوية ، ويطلقون عليها «الإنفاق في سبيل الدين» ، وبعبارة أخرى فإنهم يقومون باختراع دين جديد يتفق ومصالحهم الدنيوية الضيقة ، ثم يأخذون في تسميته باسم الدين الإلهى .

وعندما يصل الأمر بطائفة إلى هذه المرحلة الشائنة من الفساد والانحطاط الديني ، فإن الله يحرمها من كل عناية، وبعد الحرمان من العناية والتوفيق الإلهي لا يعي هؤلاء شيئاً سوى نداء رغباتهم وشهواتهم الهابطة، فلا يزالون غارقين في أوحالها ، حتى يأتي ملك الموت ليسوقهم إلى محكمة الله للحساب الشديد !!

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤ ﴾

فَأَغْرَيْنَا: هيجنا وحرشنا، أو ألصقنا.

إن الأمم الأمينة على الكتاب السماوي حين يدب إليها الفساد والانحراف ، لا تلبث أن تندفع وراء المتشابه من جوانب الدين ، مما يؤدي إلى الاختلاف والتنازع في الدنيا، والخزي والهوان في الآخرة .

لقد وُلد سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - بلا أبٍ ، من بطن امرأةٍ بلغت من الطهر والعفاف أقصاه ، وعلى إثر ولادته انطلق يعرّف نفسه بنفسه قائلاً : ﴿ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ ﴾ فإذا نحن أقمنا الآن اعتقادنا عن المسيح على أساس الكلمات الواضحة التى قالها عليه السلام عن نفسه ، نجوْنا من الخلافات والمنازعات

المذهبية التي لا تلبث أن يتدفق سيلها الجارف فلا يقف عند حدٍ ، فيما إذا كان الاعتقاد عن شخصيته بنى على محض القياس البشرى ، بدلاً من قوله الصريح المحكم ، فيقال مثلاً : «إن الإنسان هو الذى يُولد من أبٍ والمسيح لم يكن قد وُلد من أبٍ ، إذن فهو ابن الله!» كما قد حدث فعلاً مع أتباع المسيح فى العصور المتأخرة .

وما إن يتسرب الفساد إلى أية أمةٍ كتابيةٍ حتى تتفشى فيها مثل هذه المساوئ والأمراض الفتاكة ، وتسري جراثيم العفن والانحطاط في كيانها ، فتندفع وراء الدين المخترع نابذةً الدين المحكم وراء ظهرها ، ومن هنا تنفتح أبواب الجدل والنزاع والتحزب على مصراعيها ، فلا تنغلق أبداً ، فلا يكتفي الناس بالمعاني والمفاهيم اليسيرة للأحكام والتوجيهات الصريحة التي أعطاها الله والرسول في شئون التشريع والكلام ، وقضايا التزكية الروحية وأمور السياسة ، ولكنهم يخترعون ألواناً جديدةً لا تُحصى من المباحث والآراء بمجرد قياساتهم العقلية، ويكون ذلك نتيجة تأثرهم وانبهارهم بزخرفة الأفكار السائدة في عصرهم، فيحاولون تطبيقها على نصوص الدين أو العكس، وطوْراً يكون الغرض من وراء ذلك إضفاء الصبغة الدينية على مطامعهم الدنيوية الضيقة ، وقد يضيفون إلى دين الله الناقص - على حد زعمهم - بغية إكماله أشياء لا علاقة لها بدين الله.

وهكذا تظهر إلى الوجود صور جديدة متنوعة للدين الإلهي الواحد ، فمنها صورة روحانية ، وأخرى صورة سياسية ، وثالثة ورابعة ، وهلم جرا ، وتلقى كل واحدةٍ منها بالطبع أناساً تتفق ونزعاتهم وميولهم الذاتية ، ثم تتألف من هؤلاء في نهاية المطاف جماعة دينية ذات كيانٍ مستقل واتجاهات فكرية معينةٍ، ثم يتركز اهتمام أجيالهم التالية على الحفاظ على ذلك لأنه - في نظرهم - تراث للسلف الصالح ، ثم يحاط هذا التراث بالهيبة والقداسة، لأن الإنسان دائماً ينظر إلى الماضي نظرة الإجلال والتقديس.

وإن عملية التحزب المذهبي التي تبدأ باسم الدين ، تستمد عناصر الدوام

والاستقرار - من خلال صيرورتها - عملاً مقدساً ، ومن جهة أخرى يصير هذا الاتجاه بمثابة إجازةٍ عامةٍ تسمح لكل حزبٍ بإظهار البغض والعداوة ، وممارسة العنف ضد الآخرين، لأن هذا الأمر أصبح - في نظرهم - أمراً مطلوباً عند الله سبحانه وتعالى !!

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ ﴾

نُورٌ: هو محمد ﷺ .

هناك تصرفان خاطئان ، مارسهما أهل الكتاب - اليهود والنصارى - في دينهم ، أولهما التحريف أو التأويل الباطل ، حيث حذفوا العديد من التعاليم والواجبات الأساسية من إطار الدين ، كما أضافوا إلى نصوص الكتاب الإلهي تغييرات لفظية ومعنوية جعلتهم في غنىً عن الإيمان بأي نبيٍ آخر ؛ زعماً منهم بأن إيمانهم بأنبيائهم السابقين ، وتمسكهم بدين آبائهم التقليدي ، كافٍ لنجاتهم كل الكفاية!!

وأما الخطأ الثاني فهو أنهم ألزموا أنفسهم بما لم يلزمهم الله به ومنها على سبيل المثال تلك المسائل الفرعية الدقيقة التي تتصل بتقديم القرابين وآدابه ، إذْ لم تكن مما أمرهم بها أنبياؤهم ، بل كانت مما اخترعه علماؤهم بناءً على محض تخرصاتهم وتفريعاتهم الفقهية ،

وقد جاءهم القرآن نعمةً ربانيةً ؛ فتناول الدين الإلهي الذي تراكم عليه غبار كثيف من التحريفات والإضافات البشرية عبر القرون ، تناوله بتجديد معالمه ، وإعادته إلى

صفائه ، وأخرجهم القرآن الكريم من ظلام الجهل والأماني الكاذبة المطبقة إلى صراط الله المستقيم.

لقد عرض القرآن عليهم تعاليمهم المشوّهة في صورها الأصلية الناصعة ، وحررهم من أسر تلك القيود الدينية التي ألزموا أنفسهم بها ، ، غير أن الذين يصرون على اتباع أهوائهم لا يزالون يهيمون ويتخبطون في ظلمات حالكةٍ ، وأما الذين يبتغون رضا الله بشوقٍ وإخلاص ، فإنهم سيهتدون بالقرآن إلى طريق الحق القويم ، ويوفقون لإخراج أنفسهم من دياجير الباطل إلى نور الهداية الصحيحة الصادقة .

إن الآلهة التي اتخذها البشر من دون الله ، لا أحد منها يقدر على إيجاد شيء ما أو إعدامه إن كان موجوداً ، ويكفي بهذا الواقع برهاناً قاطعاً على أن لا إله إلا الله الواحد الأحد ، فالموجودات التي لا تستطيع الخلق ولا الإهلاك ، كيف يمكن أن تكون آلهة تُعبد !؟!

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

فَتْرَةٍ: فتور وانقطاع وسكون.

إن الأمة التي تُؤْتمن على الكتاب الإلهي ، يُبعث فيها الرسول ، يخصها الله بنعمٍ كثيرة وعظيمةٍ ، شريطة أن تؤمن حق الإيمان ، وتؤدي واجبها خير أداءٍ ، وتتمثل تلك النعم في النصرة على الأعداء ، والتمكين في الأرض ، والمغفرة للذنوب ، ووعد الجنة .. إلخ .

وبالنسبة للطلائع الأولى من الأمة يكون ذلك مكافأة على عملهم الذي تكبدوا المشاق وركبوا الصعب والذلول في إنجازه ، وأنهم أسلموا أنفسهم إلى الله ، وقابلهم الله تعالى بوافر نعمه وبركاته.

غير أن الوضع سرعان ما ينقلب في الأجيال التالية ، فيصير الأمر عندهم أمراً قومياً محضاً ؛ فالشيء الذي قد حصله الأوائل بالعلم والجهاد يصبح عند خلفهم إرثاً قومياً ويظنون بناء على هذا أنهم صفوة الله وأحباؤه وأنهم يستحقون النعم الإلهية مهما كان سلوكهم العملي في الحياة الدنيا!!

ومن أجل إنقاذ الأمم الأمينة على الكتاب السماوي من هذا الفهم ، فقد جرتْ سنة الله على أن تبدأ مجازاتهم ومكافأتهم في هذه الدنيا، فأمثال هؤلاء يستطيعون أن يقدّروا مكانتهم عند الله من خلال النظر إلى وضْعهم الفعلي في هذا العالم ، فلو كانوا غالبين على أعدائهم في الدنيا ، فيحظون بالقبول والرضا عند الله تعالى ، ولو أن أعداءهم انتصروا عليهم، فهم بعيدون عن رضا الله تعالى بمسافاتٍ شاسعة ؛ فإن جماعة أمينة على كتاب الله ، إذا كانت ذليلةً مهانة ومغلوبة على أمرها في الدنيا ، برغم كثرتها العددية الساحقة ، فليس لها أن ترجو أنها تكون على قمة المجد والعزة في العالم الآخر !!

إنها فكرة باطلة لا أساس لها من الحقيقة ، أن تحسب أمة من الأمم أنها حبيبة الله بوصفها أمةً ! ؛ لأن البشر جميعاً محاسبون عند الله أفراداً ،﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ ، فكل شخصٍ إنما يجد عند الله ما يستحقه بناءً على عمله الذاتي ، فالجنة ليست بوطن قومي لأحد ، كما أن جهنم ليست سجناً قومياً لأحدٍ ، والمنهج الذي يسير عليه القضاء الإلهي أنه تعالى يبعث من عنده أفراداً يقومون بإعلام البشر بحقيقة الحياة وغايتها ، وينذرونهم من عذاب جهنم ، ويبشرونهم بنعيم الجنة الأبدي ، وإنما يتمكن المرء من الوصول إلى الله ونيل رضاه باتباعه هذا المبعوث بشيراً ونذيراً من عند الله عز

وجل ، وليس بأية وسيلة أخرى.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

لقد جرت سنة الله على اختيار طائفة من الطوائف البشرية لإبلاغ رسالته إلى الناس كافةً ، فيبعث فيها رسله ويعطيها كتابه ويأمرها بأن تقوم بتبليغ تلك الرسالة الحقة إلى الآخرين ، فكما أن الوحي ينزل على شخص تختصه العناية الإلهية ، كذلك يتم اختصاص طائفةً معينة بحملها للوحي وائتمانها عليه ، وقد كان بنو إسرائيل متمتعين بهذه الخاصة في الزمن القديم ، وتم انتقالها منهم إلى الأمة الإسلامية بعد بعثة نبي آخر الزمان ﷺ .

وليس مطلوب الله منحصراً في أن تقوم طائفة بتمثيل دينه فحسب ، بل ينطوي المطلوب الإلهي على أن تحظى هذه الأمة القائمة بتمثيل دينه بأسباب العزة والغلبة في الحياة الدنيا ، حتى ينكشف للناس على صعيد الواقع المعاش أن العالم الجديد والأبدي الذي سيتكون بعد قيام الساعة ، ستكون كل أنواع السعادة ومظاهر المجد والعظمة هناك خالصةً لأهل الحق وحدهم ، وأما الباقون سواهم فسيطردهم بعيداً عن رحمة الله أذلاء مغلوبين على أمرهم .

غير أن هذا الإنعام الدنيوي لا يُعطى لهذه الطائفة جزافاً ، فلابد لها من اجتياز امتحان الجدارة والاستحقاق ، حيث يتحتم عليها أن تثبت عملياً أنها وثيقة الصلة بالله، قوية الاعتماد عليه على كل حالٍ من الأحوال ، وأنها مستمسكة بمرضاة الله دائماً صابرة على جميع المصائب و المحن التي تلقاها على طول الخط .

ولقد قيض الله الغلبة والانتصار على كل الشعوب المعادية لهم ، مادام بنو إسرائيل ثابتين على هذا المستوى الديني ، وقد أتى عليهم حين من الدهر تبوءوا فيه مكان الصدارة بين أمم الأرض المتحضرة المعاصرة لهم جمعاء ، ولكن عندما بُعث سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - كان التدهور والانحطاط قد بلغ منهم كل مبلغٍ ، فلم يعد لهم رصيد من الصبر والاعتماد على الله ما يبعثهم على مواجهة الأعداء ، والصمود في وجه الشدائد ، وقد أخذت طائفة منهم تتمرد على الله ورسوله وتستهزئ بها بكل وقاحةٍ وجرأةٍ ، ووصل الأمر إلى أن استقر في قلوبهم الرعب والخوف من شعوب الأرض القوية أشد وأكثر من خوفهم من الله عز وجل!!

وإن طائفةً ابتعثها الله لتمثيل دينه ، حين تتقاعس عن الكفاح والتضحية من أجل المهمة الإلهية ، فتريد أن ينزل الله بنفسه إلى الأرض ، ويتولى بنفسه مؤونة الكفاح وإنجاز المهام المتصلة بدينه ، سواء أكانت تلك الطائفة المتقاعسة قد أيَّدت مشيئتها هذه بلسانها كشأن مجموعة أفراد من بني إسرائيل ، أم أعلنت بعملها ولسان حالها دون مقالها كشأن الأمم الأخرى!!

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

فَافْرُقْ: فافصل بحكمك.

يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ: يسيرون فيها متحيرين ضالين.

فَلاَ تَأْسَ: فلا تحزن.

لقد كانت بلاد الشام وفلسطين يحكمها شعب قوي جبار يُدعى العماليق ، في الزمن الذي خرج فيه بنو إسرائيل من أرض مصر تحت قيادة نبيهم موسى - عليه الصلاة والسلام- ووصلوا إلى صحراء سيناء ، وخاطبهم الله: إن هؤلاء الطغاة الجبابرة قد استوفوا حظوظهم من الحياة كلها ، وأوشكت آجالهم المحددة على الانتهاء ، فلتدخلوا ديارهم ، وسيكون التوفيق والنصر الإلهي حليفكم ، وبالتالي ستتغلبون عليهم بعد مقاومةٍ عاديةٍ تكون الحاسمة ، غير أن الخوف من هذا الشعب - العماليق - كان قد بلغ من الهيمنة على نفوس بني إسرائيل إلى حد أنهم رفضوا معه الدخول إلى بلادهم ماداموا فيها ، مما كان يدل دلالةً واضحةً على أنهم يخافون من البشر أكثر وأشد من خوفهم من الله ، ومن ثم فلم يعد لوجودهم وزن ولا قيمةً عند الله تعالى ، فصدر القرار الإلهي بأنهم سيظلون تائهين في الصحراء الممتدة بين جبل فاران وشرقي الأردن لمدة أربعين سنةً (وهي من ١٤٤٠ إلى ١٤٠٠ قبل الميلاد)، حتى يهلك منهم كل أولئك الذين تزيد أعمارهم عن عشرين سنةً فصاعداً ، وفي أثناء ذلك سينشأ ويترعرع جيلهم الجديد في ظروفٍ وبيئةٍ جديدةٍ مختلفة عن جيلهم السابق كل الاختلاف !!

وقد تحقق القرار الإلهي في أجله المحدد ، فلم يبق خلال حياة الأربعين سنةً الصحراوية أحد من المتقدمين في السن منهم ، وقام جيلهم الجديد المتدفق حماساً وفتوةً من بعد ذلك بفتح بلاد الشام وفلسطين تحت قيادة ((يوشع بن نون)) ، وهو أحد الرجلين الصالحين اللذين أخبرت الآية السابقة بأنهما نصحا بنى إسرائيل بأن يقتحموا ديار العمالقة متوكلين على الله وحده!

ومن جملة الأعذار التي تقدم بها بنو إسرائيل إلى سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - للنكول عن قتال العماليق أنهم أولو بأسٍ شديدٍ ، لا طاقة لنا بهم ، وأننا لو

حملنا على بلادهم لن نعود إلا بالهزيمة النكراء ، وبعدئذٍ «سيقع أولادنا أسارى في أيدي أولئك الجبابرة»، ولكن شهد التاريخ أن هؤلاء «الأولاد» أنفسهم ، ما إن بلغوا مبلغ الرجال حتى دخلوا بلاد العماليق فاتحين ، وانتزعوا مقاليد سلطتها وخزائنها من أيديهم!!

ولم تتولد هذه القوة الهائلة في سواعد الأولاد إلا نتيجة لمقاساتهم شدائد الحياة الصحراوية واحتمال مشقاتها لفترةٍ من الزمن ، إن الظروف الصعبة الخطيرة التي كان قد تبرم بها الآباء ، وكانوا يحسونها نذراً للموت والفناء في حق أبنائهم ، كانت المواجهة الجريئة لتلك الظروف الصعبة الخطيرة ذاتها تنطوي على سرّ الحياة والازدهار لأبنائهم!!

إن أكثرنا يحلو له العيش في الظروف المواتية ، والبيئة الهادئة الخالية من الصعاب والعقبات ، ولكن الحقيقة أن مواهب المرء لا تتفتق ، ولا تتولد فيه المزايا والصفات الجميلة كلها إلا إذا اضْطر إلى أن يعيش حياة تتطلب كفاحاً مستمراً لا ينقطع مع الظروف والأوضاع الخارجية ، فقد ظل بنو إسرائيل يعيشون بمصر حياة ملؤها الدعة والاستقرار قروناً طوالاً ، مما جعل منهم شعباً خامداً هامداً ، إلا أن الحياة الصحراوية التي استقبلتهم عقب الخروج من مصر ، كانت كلها تحديات متواصلة ، إذن فكان طبيعياً أن تختلف معنويات الأطفال الذين بلغوا طور شبابهم في ظل تلك الظروف اختلافاً جذرياً عمن سبقهم ، ، فإن البيئة الصحراوية خلقت فيهم الميل إلى البساطة ، وعلو الهمة والشهامة، وحب المخاطرة والتجلد ، والنزعة الواقعية ، وهذه السمات والمزايا هي التي تحوِّل شعباً ميتاً إلى شعبٍ يتدفق حياةً وحيويةً وحرارةً !!

وإن من سنة الله في خلقه ، أن أمةً ما إذا صارت أمةً نضب معين حياتها نتيجة للحوادث والظروف ، فلا سبيل إلى إنعاشها من جديد وتحويلها ثانيةً إلى أمةٍ حية إلا أن تبتلى بشتى ألوانِ الحوادث غير العادية.

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قُرْبَانًا: ما يتقرب به من البر إليه تعالى.

تَبُوءَ بِإِثْمِي: ترجع بإثم قتلي إذا قتلتني.

وَإِثْمِكَ: السابق المانع من قبول قربانك.

على أن الجزاء الأصلي على العمل الذي يعمله المرء من أجل الله، إنما يناله في الآخرة، غير أن هذه الدنيا بدورها تشهد أحياناً وقائع تدل على ما إذا كان عمل المرء قد حظى بالقبول عند الله تعالى أم لا؟! وقد حدث موقف مماثل لهذا مع ابني آدم "قابيل وهابيل"، كان قابيل يشتغل بحرث الأرض، وكان هابيل راعي الماشية، وقد أعطى هابيل نتائج جهوده الطيبة لله بغية التقرب منه، وتفضل الله بقبول ذلك منه، مما كان له أثر ملموس في زيادة حياته وعمله خيراً وبركةً ونجاحاً.

وقدّم قابيل بعض مزروعاته إلى الله، غير أنها لم تُقبل منه، فظل محروماً من بركة الله وعنايته، الأمر الذي أثار في قلبه كوامن الحقد والحسد على أخيه الصغير هابيل، وقد اشتد لهيب الحسد ضراماً إلى حد أن قابيل توعد أخاه بالقتل، فقال له هابيل: إنما السبب في عدم قبول قربانك يرجع إلى أن قلبك يخلو من مخافة الله وتقواه، إذن فعليك أن تهتم بإصلاح نفسك بدلاً من انفجارك سخطاً وحنقاً عليّ، إلا أن الحسد إذا ما تأججت ناره في صدر أحدٍ من الناس فلا تدعه صالحاً يستعرض نقائصه الذاتية، ويُراجع حساب تصرفاته الخاطئة، وإنما يستحوذ عليه ويتملك مشاعره وحواسه كلها شيء واحد ليس غير، ألا وهو القضاء على وجود منافسه المزعوم.

(التذكير القويم ج١)

وما كان جواب هابيل على تهديد قابيل إياه سوى أن قال : لئن أقدمت فعلاً على قتلي ، فإني لن أمدّ يدي لقتلك ، ومرجع ذلك إلى أن الله تعالى قد حرم الاقتتال بين المسلمِ وأخيه المسلم تحريما مطلقاً .

أما إذا كان المعتدي من غير المسلمين فلا يجوز عندئذ أن يُتخذ منه هذا الموقف المسالم.

وإذا اقتتل رجلان مسلمان وحرص كل منهما على قتل صاحبه ، فإن الإثم في هذه الحالة يتوزع بين الاثنين على السواء ، وأما إذا أراد أحد المسلمين أن يعتدي على مسلم ، ولا يقابله الثاني بمثل اعتدائه ، بل يلجأ إلى الصبر والدعاء ، فإن الأول لا يحمل تبعة ذنبه ، بل ويُلقي على عاتقه تبعة ذنب الأخير الذي كان من المحتمل وقوعه فيه لو لم يتمسك بالصبر والدعاء !

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ: زينت وسهلت له نفسه.

يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ: يحفر فيها ليدفن غرابا قتله.

سَوْءَةَ أَخِيهِ: جيفته أو عورته.

وَيْلَتَى: كلمة جزع وتحسر.

ولقد لفت هابيل انتباه أخيه الأكبر إلى ما سوف يقع فيه ، مما جعله يستشعر بخجل وتردد في قلبه، وأخذ يراجع موقفه فوجد أنه يريد قتل أخيه البريء بدون مبررٍ ولا سبب معقولٍ ولكن جذوة الحقد والحسد المتأججة في نفسه لم تخمد ، بل أخذ شررها يتطاير حتى استبد بعقله وملك عليه أمره كله ، فلجأ إلى اختلاق ضروب من المعاذير

الواهية التي تبرر إقدامه على قتل أخيه ، وأخيراً نجح في التخلص من صراعه الداخلي بإقناع ذهنه وقلبه بتبريراته المزعومة المزورة فقتل أخاه !!

إن صوت الضمير هو صوت الله ، وإن عدم اطمئنان الضمير إلى أي عملٍ من الأعمال يضع المرء على محك الاختبار ، فإن استجاب المرء لصوت ضميره ، لأصبح من المفلحين السعداء ، وأما لو خنق صوت ضميره مستنداً إلى كلماتٍ وشعاراتٍ كاذبةٍ جوفاء فقد باء بالفشل والخسران وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال : ((ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا ، مع ما يُدخر لصاحبه في الآخرة ، من البغي وقطيعة الرحم))، ومن ثم فلم يستحق قابيل ما سيلقاه في الآخرة من العذاب لقاء ظلمه أخاه بغير الحق فحسب ، بل وقد عُجِّل بالعقوبة الباعثة على الرثاء في هذه الدنيا ؛ كما رُوي عن مجاهد وابن جبير : ((أنه علقت ساقه بفخده يوم قتله ، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت ، عقوبةً له وتنكيلاً به)) [1].

ومشهد تعليم قابيل في سياق هذه القصة بواسطة الغراب كيف يواري جُثمان المقتول تحت الأرض يتضمن الإشارة إلى أن الإنسان دون الحيوان الأبكم فطنةً وذكاءً بالنسبة للاهتداء إلى طريق الفطرة القويم ، فلو أنه اندفع وراء عواطفه اندفاعاً أعمى فلا أحد إذن أظلم وأكثر طغياناً منه ، هذا المشهد يشير إلى أن المرء لو قام بقتل دوافع الجريمة في صدره لنجا من مرارة الندم وحرقته حيث لا ينفع الندم شيئاً ، فينبغي للمرء إذن أن يعمل على إخماد نوازع القلب في طيات القلب ، ولا يسمح لها بأن تتحول إلى مظاهر واقعية ملموسة خارج القلب ، فإن أية نزعة شرٍ لا يتطلب دفنها في داخل القلب ، قبل ترجمتها إلى واقعٍ عملي في العالم الخارجي إلا مجهودا نفسياً داخلياً ، وأما لو ترجمها المرء إلى واقعٍ محسوسٍ في الخارج ، فإنه سيواجه بعدئذٍ مشكلة دفن ((الجثة)) لإنسان بريء ليس عهده بالحياة ببعيد ، والتي لا تكاد تخفى على الله اللطيف الخبير مهما

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير : ص٥٠٩.

تم دفنها ومواراتها تحت طبقاتٍ كثيفةٍ متراكمة من التراب !

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ: يبعدوا أو يسجنوا.

خِزْيٌ: ذل وفضيحة وعقوبة.

حين يقتل الإنسان شخصاً فإنه لا يكون بذلك قاتل إنسانٍ واحدٍ فحسب ، بل يكون بالأحرى قاتل بني الإنسان جميعاً ؛ لأنه ينتهك قانون الحرمة ، ذلك الذي ترتبط به سلامة حياة الناس كافةً ارتباط عدم ووجودٍ ، وكذلك حين يقوم أحد الناس بإنقاذ أحدٍ سواه من ظلم الظالم وعدوانه ، فلا يكون ذلك الشخص منقذاً لفردٍ واحدٍ فقط ، بل يكون منقذاً لأفراد البشرية ، لأنه بذلك حافظ على المبدأ القائل بكون أرواح كل البشر محترمة على حدٍ سواء ، وينبغي للمسلمين أن ينظروا إلى حادثٍ واحد من هذا النوع وكأن أرواح جميع الناس وأعْراضهم وأموالهم كلها مهددة بالخطر ، فليسرعوا إلى اقتلاع جذوره في مبدأ الأمر قبل أن يصبح شره مستطيراً.

إن المبدأ الذي أقام الله عليه نظام هذا الكون هو أن يؤدي كل أحدٍ ما أُنيط به من الواجبات والمسئوليات ، من غير أن يتدخل في دائرة عمل الشخص الآخر بدون لزومٍ، وإن كل الكائنات ، تسير على خط الفطرة دون انحراف ، ما عدا الإنسان ، الذي قد

مُنح له حرية الاختيار والتصرف بصفةٍ وقتيةً ، فإنه يطغى ويتجاوز حدوده ، فيحدث خللاً واضطراباً في سير النظام الفطري ، وهؤلاء الخارجون على نظام الفطرة من كبار المجرمين عند الله تعالى ، ويفوقهم جرماً وعناداً إلى حدٍ كبيرٍ جداً أولئك الذين يحاربون الله ورسوله، يعني أنهم يزرعون العراقيل والعقبات في طريق الدعوة ويقومون بأعمال تخريبية ضدها، تلك الدعوة التي يفجرها الله بين عباده لكي تمنعهم من الإسراف والبغي ونشر الفساد في الأرض، وتدعوهم إلى ممارسة الحياة وفقاً لحدود الفطرة الإلهية المرسومة ، وإن المفسدين المخربين وأشباههم لهم عقوبة رادعة في هذه الدنيا ، ونيران حامية متأججة في تلك الدار الآخرة !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ۝٣٧ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝٣٩ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٤٠ ﴾

الوَسِيلَةَ: الزلفى بفعل الطاعات وترك المعاصي.

نَكَالاً: عقوبة تمنع من العود.

إن القرب من الله عز وجل أعظم وأغلى أماني العبد المؤمن ، ومع أن القرب الإلهي لا يمكن الظفر به بشكله المحسوس والكامل إلا في الآخرة ، غير أن عملَ عبدٍ حين يتسبب في تقريبه من الله ؛ لمصادفته القبول والرضا لدى ربه ؛ فإنه يجرب هذا القرب في

هذه الدنيا بالذات بشكل يكيفية وجدانية لطيفة ؛ وذريعة الوصول إلى هذا القرب هي التقوى والجهاد، يعني عبادة الله وطاعته الدائمة على مستوى الخوف من الله ، والكفاح المتواصل في سبيله !

وقد يمر المرء في حياته بلمحات يجد فيها نفسه واقفاً بين الحق والباطل ، ويكون التقدم نحو الحق باعثا على تحطّم أنانيته ، مؤدياً إلى تشتت شمل مصالحه الدنيوية ، بينما يضمن الاتجاه نحو طريق الباطل ، ألا تزال أنانيته منتصبة القامة ، مرفوعة الرأس ، وأن تظل مصالحه المادية محفوظة من أي خطر يتهددها ، إن خوف المرء في موقف كهذا من الله - عز وجل - واستمساكه بالله مع التخلي عن المصالح الأخرى جملةً واحدةً ، ومواصلة السير قدماً على درب الحق ، بالرغم من كل المكاره والعقبات المزروعة على طول الخط، مما يقربه من الله - سبحانه وتعالى - ، وفي اللحظة ذاتها ينعم المرء بتجربة دنيوية عاجلة لهذا القرب الإلهي على مستوى الحس في شكل كيفية لطيفة ساميةٍ !!

وأما الشخص الذي يرفض - على عكس الأول - السير على طريق التقوى والجهاد فإنه قد اتجه نحو الكفر والجحود بالله ؛ ممّا يورطه في عذابٍ مقيم دائمٍ ، نتيجة انقطاع صلته بالله وابتعاده عن كنفه ، ولن يسعه أبداً أن يجد إلى التخلص منه سبيلاً!!

إن أمر الجزاء كله بيد الله الواحد الأحد ، وهو الذي سيحدد مصائر الجميع على حسب ما تقتضيه حكمته البالغة وقدرته الشاملة ، فليس هناك ما يدعو إلى اليأس أو التشاؤم المطلق بأن ما قد سبق صدوره من سيئات الأعمال لن يبرح عالقاً بصاحبه دون أن يزيله ، حتى لو أقلع عن ذلك كله فعلاً ، وأصلح نفسه وغير مجرى حياته العملية فيما بعد ، وليس ثمة ما يبعث على التفاؤل أو الاعتقاد الجميل القائل بكون أية قوةٍ أخرى تستطيع تغيير عاقبة بعض الناس بيالها من حق الشفاعة أو صلاحية التدخل في القضاء الإلهي المحتوم ! كلا ، بل الأمر بكليته راجع إلى مشيئة الله العليا وحدها !!

والعقوبات التي شرعها الإسلام بشأن الجرائم الاجتماعية ترمي إلى غرضين

رئيسين: أحدهما مجازاة المجرم على جريمته، والثاني أن يتم تثبيط المجرمين الآخرين؛ لأنهم لن يندفعوا إلى ارتكاب الجريمة نظراً لما لقيه أحدهم من عقوبة ((رادعة))، بيد أن المجرم لو شعر بالندم على ما فعل، فتضرع إلى الله طالباً عفوه والمغفرة لذنوبه، مصمماً على عدم العودة إلى سيرته السيئة المنحرفة السابقة في حياته المقبلة، فالمأمول أن الله سيعفو عنه في العالم الآخر؛ لأنه تعالى هو الغفور الرحيم.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ: يسمعون كلامك فيمسخونه ليكذبوا عليك فيه.

سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ: يسمعون كلامك للتجسس لقوم آخرين.

يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ: يبدلونه أو يؤولونه بالباطل.

فِتْنَتَهُ: ضلالته وكفره وإهلاكه.

خِزْيٌ: افتضاح وذل.

كان في المدينة صنفان من الناس، يعملان على معارضة الدعوة الإسلامية وعرقلتها، هما: المنافقون واليهود، أما المنافقون فهم أولئك الذين اندسوا في صفوف المسلمين متظاهرين بالانتماء الشكلي أو الاسمي إلى الإسلام، دون أن يقبلوه من صميم قلوبهم بصدقٍ وإخلاصٍ؛ لأن دعوة الإسلام الحق كانت تمثل الضربة القاضية

على أغراضهم ومنافعهم الذاتية وأما اليهود فكانوا المتربعين على مناصب التمثيل الديني، ومن ثم يخيل إليهم أن الدعوة الإسلامية ، إنما جاءت تتوخى نزع الرياسة الدينية من أيديهم ، وخلْعهم عن كل الامتيازات ومظاهر الشرف والعظمة التي ظلوا متمتعين بها منذ قرونٍ!!.

وكان طبيعياً أن يتواطأ هذان الصنفان كلاهما من أجل القيام بشن الهجوم المعاكس على الإسلام مع بعضهما؛ لأن الإسلام في نظرهما عدو مشترك لكليهما ، وبما أن أشرافهم كانوا يستنكفون من الحضور بأنفسهم في مجلس رسول الله ﷺ باعتبار ذلك أمراً لا يليق بشأنهم ، لذا فكان أتباعهم هم المأمورون بأن يستمعوا إلى ما يدور بمجالس الرسول من حوارٍ أو حديث ، فيقوموا بإنهاء ذلك كله إلى أشرافهم ، ثم يتناول السادة كل ما يُوصل إليهم بتحميله المعاني العكسيةً ، حتى يشوهوا سمعة صاحب الرسالة ودعوته بين الناس ، وقد بلغ منهم العناد والطغيان مبلغاً لم يعودوا معه يتورعون عن تحريف كلام الله عن مواضعه وسياقاته الحقيقة ، لكي يستنتجوا منه مفاهيم وآراء مزعومةً تخدم أغراضهم ورغائبهم الدنيئة !

هؤلاء أناس لا يُخضعون أنفسهم لأوامر الله ورسوله إخضاعاً مطلقاً ، بل يُخضعون أوامر الله ورسوله لميولهم ونزعاتهم الذاتية ، ولا يأخذون من تلك إلا ما يتفق مع هذه ، والعكس بالعكس ، إن هذا الاتجاه أخطر فتنة يبتلى بها أحد الناس ، فكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا الذين يفضّلون دوماً جانب المنفعة والمصلحة على جانب الحق ، والذين يودّون أن تكون مقاعد الكبرياء والسؤدد محجوزةً لهم دون غيرهم على كل حالٍ من الأحوال ، والذين يدبرون مكائد وخططاً تخريبية ضد مسيرة الحق ، حتى ولو تناولوا الكلام الإلهي بالتحريف والتبديل لتبرير أعمالهم الهدامة ، فإن الأمر ينتهي بهؤلاء وأمثالهم في نهاية المطاف إلى الحرمان الكلي من الاستعداد لقبول الحق ، إنهم قطعوا علاقتهم بالله ، فإن الله أيضاً قابلهم بالتخلي عنهم ، ونتيجة حرمانهم من توفيق الله وتسديده لا يبرح أمثال هؤلاء غارقين في أمورٍ باطلةٍ وأشغالٍ تافهةٍ لا طائل تحتها ، إلى

أن يُساقوا أخيراً إلى عالم النّار!!.

وإن عبد الله الذي يكون قد رشح نفسه للاضطلاع بمهمة البلاغ والدعوة إلى دين الله الحق، فلا ينبغي أن تخور عزيمته، أو يتسرب الضعف إلى همته؛ نظراً لكثرة المعارضين وشدة معاكساتهم؛لأن النشاطات المعادية التي يمارسها هؤلاء الناس فاشلة دائماً، ولن تُكلل بنجاحٍ، لأنها ليست ضد شخصية الداعي، بل ضد الله - عز وجل !، ومن ذا سيحالفه النجاح في مواجهة الله يا تُرى!!، وغاية ما يطلبه الله تعالى من عملية الدعوة أن يتم إعلام الناس بجوهر الحقيقة على أفضل وجه، وإلى أقصى حدٍ ممكنٍ، وتلك غاية لابد أن تتحقق بفضل الله وعونه عاجلاً أو آجلاً!

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ: للمال الحرام. وأفحشه الرشا.

بِالْقِسْطِ: بالعدل، وهو حكم الإسلام.

الْمُقْسِطِينَ: العادلين فيما ولوا وحكموا فيه.

يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ: يعرضون عن حكمك الموافق للتوراة.

المراد بالسُّحت الرشوة ومن صور الرشوة المعتادة الشائعة، ما يتم تبادله بين الآخذ والمعطي؛ من غير لجوءٍ إلى التمويه أو تسمية الشيء بغير اسمه، ولقد كانت هذه الصورة من الرشوة متفشية بين عددٍ من طبقة العلماء اليهود، الذين كانوا يعلمون الناس مسائل وأحكاماً خاطئةً مقابل تعويضات مادية معينةً.

غير أن هناك شكلاً آخر من الرشوة؛وبالرغم من كونه لا يتم فيه تبادل الأخذ والعطاء بين الطرفين على نحوٍ مباشرٍ ومكشوفٍ،ولكنه أعظم أنواع الرُشا وأشنعها على الإطلاق،وذلك أن يُعرض الدين الإلهي بعد صياغته وفقاً لاتجاهات العوام ورغباتهم ؛ بغية الحصول على صيت ذائعٍ،وسمعةٍ عريضة، وكسب احترام الشعب وحفاوته البالغة،واستدراراً لتبرعات الناس وهباتهم ونذورهم بصفةٍ منتظمةٍ دون انقطاعٍ !!

إن تقديم الدين في صورته الخالصة النقية من كل شوبٍ ، يكون دوماً على حساب أن يفقد المرء كل اعتبارٍ ونفوذٍ وحفاوةٍ بين الناس ، وعلى العكس من ذلك فلو تمّ عرض الدين بشكلٍ يتيح للمرء فرصة الانخراط في سلك التدين والمتدينين ، من غير أن يُلزمه بإحداث أي تغيير فعلي في حياته العملية ، فلسرعان ما يُقبل الجماهير على هذا الدين من كل صوبٍ ويتجمع حوله جموع غفيرة من سائر طبقاتهم !!

فالدين الذي يضمن الوصول إلى الجنة بواسطة مجموعة من الأعمال الشكلية التافهة وبدون تأكيد على ضرورة تغيير مسار الحياة المادية البحتة ، والدين الذي يُضفي على المعارك القومية والصراعات الدنيوية طابعاً دينياً ، والدين الذي تتوفر فيه إمكانية أن يتم تسجيل أعمال المرء وتصرفاته كلها في خانة التدين ؛ حتى ولو كان نشاطه من أجل الحصول على الوجاهة الدنيوية وتحقيق المنافع الذاتية لا غير ، إن المبشرين بهذا النوع من الدين طالما يحظون بنفوذٍ واسعٍ ومكانة مرموقة بين أوساط الجهلة والعوام بين عشيةً وضحاها!!

وزعماء اليهود قد صاروا مرجع السواد الأعظم من خلال ترويجهم لهذا النوع من الدين ، وكانوا يعرضون على العوام ((ديناً محبباً)) أو ((مفضلاً)) لديهم ، فلا غرو أن كان العوام بدورهم يقابلونهم بتقديم المعونات المالية إليهم ، إلى جانب إحاطتهم بهالةٍ من التجلة والإكرام!!

وفي هذا الوضع كان من الطبيعي أن تشتد عليهم وطأة الدعوة إلى الدين الحق ، التي

دعا إليها رسول الله ﷺ فى الجزيرة العربية ، لأن ذلك بمثابة تحطيمٍ لبنيان منافعهم ، ممَّا ملأهم بغضاً ومكابرةً وحقداً على النبي ﷺ إلى حدٍ لم يعد معه أى خبر جميل يتصل بذاته – عليه الصلاة والسلام – يروقهم ، أو يظفر بشيء من اهتمامهم ، ولو أنهم سمعوا عنه مرةً أي خبرٍ غير جميل، يتناولونه بالنشر الفوري بين الناس ، مع الإضافة إليه من عند أنفسهم ما يزيده سوءاً ، ويجعله أكثر إثارة لمشاعر الاستياء والتقزز فى النفوس!!

والذين بلغوا إلى هذا الدرك من الفساد والانحطاط والتدني ، يتحاكمون بعدئذ إلى حكمٍ أو مصدرٍ ديني بدافع اتباع الحق والعدل ، بل رجاء أن الحُكْم سيصدر وفقاً لأهوائهم، وأما إذا لم يتحقق هذا الرجاء، فلا شيء يمنعهم من رفض الحكم الصادر رفضاً باتاً ، رغم كونهم عارفين بأنه حكم الله ورسوله ! ويغيب عنهم أن موقفهم لا يعني محض رفضٍ وإنكارٍ لحكم من الأحكام الدينية وحده ، بل إنكار للإيمان والإسلام !

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

أَسْلَمُوا: انقادوا لحكم ربهم في التوراة .

وَالرَّبَّانِيُّونَ: عباد اليهود، أو العلماء الفقهاء.

وَالأَحْبَارُ: علماء اليهود.

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم: اتبعنا على آثار النبيين.

إن كتاب الله إنما يُنزل من أجل أن يهدي البشر جميعاً إلى طريق فلاحهم ، ويخرجهم من ظلام العبودية للشهوات الباطلة إلى نور العبودية للحق ، فالذين يخافون الله ، ينظرون إلى كتاب الله على أنه عهد مقدس بين العبد وربه ، فيبذلون قصاراهم للوفاء بحقه ؛ إن كتاب الله ترجمان لقضاء الله وإرادته في حق العباد ، إذن فالضرورة تقتضي أن يعالج العباد كل شئونهم ومعاملاتهم في الحياة في ضوء توجيهاته ، وأن يتخذوا من أحكامه وتعليماته أساساً لفصل الخصومات والمنازعات الناشبة بينهم ، أما إذا لم يُعْطَ لكتاب الله هذا الاعتبار، بل يبعد عن ميدان الحياة العملية ، وظلت جميع الأمور والمعاملات خاضعةً لرغبات الأفراد الشخصية ، ومصالحهم الدنيوية ، فسيكون ذلك بمثابة إنكار الكتاب الإلهي ورفضه ؛ مهما بالغ الناس في تقديسه واحترامه الظاهري على وجه التبرك!!

والذين يصفون أنفسهم بأنهم ((مسلمون)) ، ثم لا يحكّمون كتاب الله في أمور حياتهم وقضياها الفردية والاجتماعية كلها ، رغام تمتعهم بكامل الحرية والاختيار ، بل لا يزالون يتبعون شريعة الأهواء والرغبات ، فإنهم إذن عند الله ((كافرون)) و((ظالمون)) و((فاسقون)) أي منكرون لحاكمية الله وسلطته العليا ، ومضيعون للحقوق والذمم ، وخارجون عن عهد الانقياد والطاعة لله ، فإن تقاعس المرء عن تطبيق أحكام الشريعة الإلهية تطبيقاً عملياً، وإهماله إيّاها عن عمدٍ ودرايةٍ ، يجعل وجوده هيناً على الله ، بحيث لا يبقى له قيمة في نظره تعالى !

أما فيما يتعلق بالقصاص ، فإن الشريعة تقتضي أن يتم تنفيذه ، من غير نظرٍ إلى مكانة

الجاني أو اكتراثٍ لمركزه الاجتماعي كائناً من كان ، إلا أن العدوان ، قد يرجع سببه في بعض الأحايين إلى دافعٍ وقتي،وليس إلى كون صاحبه شريراً عدوانياً بطبعه ، وفي حالة كهذه ، لو عفا المجروح عن الجارح طوعياً ، فسيكون ذلك صدقةً منه على هذا الأخير، كما يكون ذلك أيضاً باعثاً قوياً على سيادة معاني الجود والتسامح والتراحم في المجتمع.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ: رقيبا وشاهدا على ما سبقه.

عَمَّا جَاءَكَ: عادلا عما جاءك.

شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا: شريعة وطريقا واضحا في الدين.

لِيَبْلُوَكُمْ: ليختبركم وهو أعلم بأمركم.

إن المراد من ((الكتاب)) هنا هو أصول الدين وتعاليمه الأساسية ، وليس ((كتاب الله)) هذا - بوصفه أصل الدين وأساسه - إلا كتاباً واحداً ، وقد أُنزل هذا الكتاب الواحد على جميع الأنبياء بدون استثناءٍ مع اختلافٍ في اللغة والأسلوب ، وتباين في الترتيب أو النسق الذي جرى عليه التنزيل .

على أن القالب أو الهيكل الظاهري الذي تتجسد فيه حقيقة الدين لم يكن دائماً من نوعٍ وحجمٍ واحدٍ ، بل ما زال يختلف من نبي إلى آخر ، وليس السبب وراء هذا الفارق أن الدين قد جرى نزوله على نسقٍ تطوري أو تقدمي ، يعني أن الدين الذي تم إنزاله أول الأمر كان ديناً ناقصاً وأقل تقدماً ، ثم أخذ يتطور ويتكامل على تعاقب العصور ،

حتى نزل آخر الأمر في صورة دين أكمل وأشمل وأكثر تقدماً، إنما السبب وراء هذا الفارق يكمن في حكمة الابتلاء الإلهي، وليس في حكمة التطور الديني مجاراةً للارتقاء البشري، كما ذهب إليه المفسرون عموماً، ولاسيما المحدثين منهم في تعليل هذه الظاهرة، فقد أشار الله - عز وجل - بنفسه إشارةً واضحةً إلى أن الغاية المتوخاة من وجود الفرق بين شرائع الأنبياء هي اختبار الناس لا غير، حيث قال جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

إن آفة التدين منذ القِدَم، أن حقيقة الدين الجوهرية لا تلبث أن تضيع وتتلاشى على مرّ الأيام، بينما تكتسب الظواهر والأشكال أهميةً وقداسةً كأنها الأصل المطلوب لذاته، فيظن الناس أن العبادة ليست سوى تكرارٍ رتيبٍ لهيكل معينٍ وفق شروطٍ وآدابٍ ظاهريةٍ خاصةٍ، ومن أجل إصلاح هذا الاتجاه الخاطئ، فقد تنُوول الهيكل الظاهري للدين بالتغيير والتبديل مرةً بعد أخرى، حتى لا يعود الهيكلُ ينظر إليه على أنه هو الهدف المقصود لذاته، وبالتالي تتركز الاهتمامات والتوجهات كلها على الله تعالى وحده، إذْ لا شيء سواه يصلح أن يكون مقصود البشر، ومثال ذلك تحويل القبلة.

ومع أنه لم يعد الآن أي احتمال لحدوث تغيير من هذا النوع؛ لأن النبي هو الذي يقوم بتغيير الهيكل؛ ولا نبي بعد ختم النبوة - على صاحبها صلوات الله وسلامه - ولكن المطلوب الأصلي من العباد مازال قائماً كما هو، إذْ لا ولن يُعتبر عند الله عابداً صادقاً له، إلا الذي يعبد الله متحرراً من أسْر المظاهر والرسوم الشكلية، والذي لا يرفعه إلى مستوى الهدف المقصود لذاته، وقد كان هذا الغرض يتحقق من ذي قبل عبر تحطيم الهيكل الظاهري، أو استبداله بهيكل آخر جديد، أما الآن فلا سبيل إلى تحقيقه إلا العمل الدائم على تحطيم الجمود الفكري، والسهر المقصود على تنقية التصورات الدينية الجوهرية من الشوائب!!

وما هذه الخلافات والمناقشات الحادة التي تُثار حول ظواهر الدين وفروعه إلا

نتيجة حتمية لغفلة الناس وذهولهم عن جوهر الحقيقة، وإنه لا تلبث كل هذه الخلافات أن تنتهي فيما لو أدرك الناس الحقيقة على الشكل الذي ستتخذه في العالم الآخر.

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

أَن يَفْتِنُوكَ: يصرفوك ويصدوك بكيدهم.

ليس القرآن وما سبقه من الصحف السماوية كتباً متغايرة مستقلة بعضها عن بعض، إنما هي نسخ أو طبعات مختلفة لكتابٍ إلهيٍ واحدٍ، لا غير، والتي أُطلق عليها «الكتاب» في الآية السابقة.

إن كل الكتب التي نزلت من عند الله، على اختلاف لغاتها والعصور التي نزلت فيها، كانت تحتوي أساساً على مضامين مشتركةٍ مماثلةٍ بعضها لبعض إلا أن حملة الكتب السابقة لم يتمكنوا من الاحتفاظ بها، في صورها الأصلية الناصعة فيما بعد مما اقتضى أن أنزل الله تعالى أخيراً القرآن الكريم، بوصفه «كتاباً مهيمناً» على ما سبقه من الكتب، فالقرآن هو الطبعة المعتمدة - الموثوق بها - لكتاب الله الواحد، وهو بذلك يقوم محكاً أو معيارا للمعرفة عن الكتب السابقة وما لا يزال - الآن - محتفظاً بهيئته الأصلية الأولى عن بقايا الكتب السابقة، التى عبثت بها أيدى التحريف والتزييف، فلم تعدْ كما كان فى أول عهدها.

ومع أن سنة الله - المتمثلة في إمهال أعداء الحق لتحقيق نواياهم المشؤومة - تضع دعاة الحق موضع اختبارٍ شاقٍ عسيرٍ للغاية، إلا أنها العملية التي يتم من خلالها التمييز

الفعلي بين الذين هم أهل للجنة، والذين هم أصحاب السعير!!

إن ضعْف الإنسان يكمن في ولعه بالانسياق وراء رغباته الذاتية ، وهو بذلك ،كثيراً ما يستثقل أن يعيش ملتزماً بحدود الله ، حتى إنه قد يتناول الدين الإلهي بتفسيره تفسيراً مزعوماً ليتواءم مع أهوائه ونزعاته الشخصية !، فلنْ يَقْبل الدين الخالص إذن.

إن كلام الله أصْوب الحديث وأصْدقه ، غير أن هذا العالم عالم اختبارٍ وابتلاءٍ ، فلا يُوجد صدق إلا وهو مقنّع بغلاف من الريب ، وامتحان المرء أن يؤمن بالصدق ممزقاً غلاف الريب ذاك من على وجهه، أي أنه مطالبٌ بأن يشاهد عالم الغيب المستور في هذا العالم المنظور ذاته ، والفاشل في هذا الامتحان هو الذي لم يرتفع بنفسه إلى هذا المستوى، وظل متورطاً في الشبهات الظاهرية ، أما الشخص الذي أدرك الصدق ، عبْر ما يحيط به من غبار الشبهات الظاهرية فهو الفائز بالنجاح حقاً.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

أَوْلِيَاءُ: تؤاخونهم وتستنصرونهم.

تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ: يدور علينا الدهر بنوائبه.

بِالْفَتْحِ: بالنصر لرسوله ﷺ .

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ: مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها.

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ: بطلت وضاعت.

لم تكن شوكة الإسلام قد تمكنت بعدُ بالجزيرة العربية ، ولا كان المسلمون قد استقروا في أقطارها بعدُ ، على حالٍ كذلك ، وزدْ على هذا أن معارضيهم كانوا يبذلون جهوداً مكثفةً دائبةً لقمعهم واستئصال شأفتهم ليل نهار ، هذا من جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرى كانت القبائل اليهودية والنصرانية في الجزيرة تتمتع بنفوذٍ واسعٍ ومكانةٍ عظيمةٍ لدى الناس ، لما كان لها من تاريخ مجيدٍ يمتد إلى مئات السنين الماضية ، إلى جانب سيطرتها على معظم وسائل الاقتصاد وموارد المعيشة في البلاد دون منازعٍ ، مما جعل عامة الناس يرون من المستبعد أن قوةً كهذه يمكن التغلب عليها أو اقتلاع جذورها العميقة من البلاد كما خلق ذلك أيضاً اليأس في نفوس ضعفاء الإيمان في صفوف المسلمين من مستقبل الدعوة الإسلامية ، فكانوا يتحاشون أن يُسهموا في نشر الإسلام على نحوٍ يتسبب في دفع اليهود والنصارى إلى معاداتهم، فلابد إذن من استبقاء مودّتهم، عسى أن يسفر هذا الصراع عن هزيمة المسلمين وانكسارهم - فيتعرضوا لإجراءات انتقامية تعسفية من قبل اليهود والنصارى المنتصرين القاهرين !!

ومن المدهش حقاً أن هؤلاء في محاولتهم تلك للوقاية من خطر المستقبل الوهمي قد أوقعوا أنفسهم في خطر الساعة الأكيد ، ألا هو ولاؤهم المزدوج الذي مارسوه توسلاً به لكسب الثقة عند معارضي الإسلام ، والذي جرّ عليهم الشقاء والخسارة الأبدية من حيث أرادوا به نيل الربح والسعادة !

إن الشخص الذي ينضوي تحت راية الحق يستمر ، مادامت الأمور سهلة المأخذ ، مأمونة العاقبة ، ثم لا يلبث أن ينضم إلى جبهة الباطل ، ويقلب لأهل الحق ظهر المجن ، في حالة ما إذا كانت النتائج تبدو مخيفةً أو غير مضمونةٍ ، ولن يُحشر عند الله تعالى إلا مع الذين وقف إلى جانبهم في مواقع الخطر والخوف !!

وإن من أخطر المواقف التي يمر بها أحد في حياته ، الموقف الذي يفرض عليه نوعاً

من التضحية كثمن لابد منه للبقاء على الإسلام ، فإن هذه المواقف إنما تأتي لتؤكد صدق إسلام المرء أو ترفضه وتكشف عن زيفه ، والله - سبحانه وتعالى - يريد للمرء أن يثبت إسلامه في تلك المناسبات ، التي تتطلب كبت العواطف المنبعثة أو تعرّض حياته وماله لخطرٍ محققٍ ، تماماً، كما كان يثبت إسلامه ذاك في ظروف الأمن والدعة والاستقرار،وبعد تمام اجتيازه هذه الامتحان بنجاح فقط،يصلح المرء ليسجله ربه ضمن عباده الأوفياء المخلصين له الدين كله ، إن إثبات الولاء للإسلام في هذه المواقف هو الذي يُكسب سوابق أعمال شخصٍ ما قيمةً ووزناً حقيقيين ، وأما إذا لم يتمكن من إثبات ولائه للإسلام في هذه المواقف الحاسمة ، فمعنى ذلك أنه قد أحبط أعماله السابقة كلها إحباطاً ، بحيث لم تعدْ لها أية قيمة ولا وزنٍ عند الله - جل وعلا !

إن كل اختبارٍ في هذه الدنيا هو اختبار لقوة الإرادة أولاً وآخراً وما على المرء إلا أن يثبت إرادته ؛ فيقدم أولى خطواته نحو الله ، وإنه حين إن يفعل ذلك يفاجأ بصيرورة النصر الإلهي حليفه على الفور ، وأما الشخص الذي لم يثبت إرادته ، فلم يتقدم بأولى خطواته نحو الله ، فهو عند الله ظالم ، وليس الله بممدّ الظالمين بتوفيقه ونصرته من طرفٍ واحدٍ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٥٦ ﴾

أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ: عاطفين عليهم رحماء.

أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ: أشداء عليهم غلظاء.

لَوْمَةَ لائِمٍ: اعتراض معترض في نصرهم الدين.

وَاللهُ وَاسِعٌ: كثير الفضل والجود.

إن الشخص الذي يرفض الوفاء بمقتضيات الإيمان، بعد دخوله في دائرة الإيمان، هو عند الله من الذين قد ارتدوا عن الدين، وإنما المؤمنون الصادقون عند الله هم الذين يتوغل الإيمان في أعماق قلوبهم فيغمر كيانهم بمحبّة الله، ويزيدهم حرصاً على تحقيق الأهداف الإسلامية، فلا تنطوي صدورهم لإخوانهم المجاهدين من أجل الإسلام على شيء غير اللين والرأفة والمواساة، ويصل عطفهم وإشفاقهم على جماعة المسلمين إلى حدٍ لا تُستخدم معه طاقاتهم وصلاحياتهم أبداً فيما يؤدي إلى الإضرار بالجماعة المسلمة أو يتهدد مصالحها، وأن تبلغ صرامتهم وتصلّبهم في أمر الدين مبلغاً يقيهم من التأثر بأفكار غير المسلمين ونشاطاتهم كلها، وأن تصير عواطفهم كلها خاضعةً للمبدأ على نحوٍ يجعل منهم أرق من النسيم وألين من أوراق الورد، إذا تعاملوا مع إخوانهم المسلمين، وأغلظ وأقسى من الصخور الصمّاء في مواجهة غير المسلمين، حتى لا يوجد طامع من غير المسلمين في سبيل استغلالهم للوصول إلى غاياته ومآربه المشبوهة.

والحياة الإسلامية حياة هادفة، وملؤها الكفاح والمشقة والعناء، ورسالة المسلم أن يقوم بإبلاغ دين الله إلى عباد الله أجمعين، وأن يبذل قصاراه لتحويل اتجاه البشرية الضالة المنحرفة من طريق جهنم إلى طريق الجنة، ولذلك يواجه المؤمن القائم به ألواناً شتى من المشاكل والصعوبات، ويلقى ضروباً لا تحصى من الملامة واللائمين، حتى يظهر إلى الوجود فئتان مستقلتان إحداهما عن الأخرى، في المبدأ والغاية: فئة رجال الدنيا، وفئة المسافرين إلى الآخرة، وتأخذ هاتان الفئتان في صراعٍ عنيف دائم لا يبلغ نهايته أو تهدأ حدّته، وامتحان المؤمن أن يمرّ بكل المواقف والمحطات على طريق رحلته الإيمانية الطويلة، كإنسان زادُ سفره الثقة بالله والاعتماد عليه وحده، لا غير، فيواصل مسيرته من غير كللٍ أو ملل وغير آبهٍ لأحدٍ سوى مرضاة الله تعالى، حتى يصل أخيراً

إلى ربه عبر بوابة الموت!

وإنه إذا بلغ تعداد الأفراد من هذه النوعية في مكانٍ ما إلى عددٍ ملحوظٍ ، قُيض لأنفسهم الغلبة على الأرض والتمكين فيها كذلك ، وهؤلاء أناس يهتمون بإقامة الصلاة أبلغ الاهتمام ، يعني أن يصبح الله مركز عناياتهم وتوجهاتهم كلها ، ويقومون بتأدية الزكاة خير قيام ، أي أن علاقاتهم المتبادلة تقوم على أساس من التناصح والتكافل فيما بينهم ، ويكونون دائماً خاشعين متذللين أمام الله ، يعني أنهم يعالجون كل قضيةٍ من قضايا الحياة ملتزمين بمشيئة الله فيها ، واقفين عند حدوده المرسومة لها ، غير مدفوعين بدوافع الأنانية والتعنت واللجاجة، فإن سمتهم المميزة التواضع وليس التمرد والعناد!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

هُزُواً وَلَعِباً: سخرية، وهزلا ومجونا.

تَنقِمُونَ: تكرهون أو تعيبون وتنكرون.

وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ: أطاع الشيطان في معصية الله.

سَوَاءِ السَّبِيلِ: الطريق المعتدل وهو الإسلام.

المحتكرون لمقامات العبودية الإلهية ، مستأثرون بمظاهرها لأنفسهم ، بناءً على دينٍ مزعومٍ زائفٍ ، حين تقوم بينهم الدعوة إلى الدين الحق وبصورته الخالصة الأصيلة ، فإنهم يشعرون بكره بالغٍ ومقتٍ شديد نحوها ، لدرجة أنهم لا يتمالكون أن يفقدوا معقوليتهم ، ويصابوا بحالة نزقٍ وعدم توازنٍ ذهني تجعلهم يأخذون في الاستهزاء بالأشياء التي لا جدال في كونها جديرةً بالاحترام بالبداهة ، وقد كان يهود المدينة مُصابين نفسها بهذه الحالة إزاء الدعوة الإسلامية، فلم يتورعوا عن الاستهزاء والسخرية من أذان المسلمين والتلاعب بكلماته المقدسة ، والذين بلغوا إلى هذا الدرك الأسفل من البلادة وانعدام الوعي واللاجدية، فقد يُحتمل أن تُوجد هناك علاقة الدعوة بينهم وبين رجلٍ مسلمٍ ، وأما علاقة المودة والصداقة فلا.

وبسبب تجردهم عن مخافة الله وتقواه ، يسهل على هؤلاء وأمثالهم أن يسيؤوا الظن بالمسلمين الصادقين ، ويعتبروهم عصاةً مجرمين ، ويكونوا متأكدين من أنه لا غضاضة في سلوكهم ، وأن موقفهم هو عين الصواب عند الله تعالى !! ثم إنهم إذا لم يُعنوا بإصلاح عوجهم الذهني ذاك ، فإن بلادة إحساسهم تؤدي بهم نهائياً إلى حيث تتعطل عقولهم تمام التعطل ، فلا تعود تقدر على التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير وضده ، ومن ثم فهم ينقلبون أشر من البهائم في شكل الآدميين ، إذْ تتلاشى وتضمحل في داخلهم كل تلك الأحاسيس اللطيفة السامية التي تعمل في ضمير الإنسان عمل حارسٍ إلهي يزجره عن الاستجابة لدواعي الشر والغواية ، ويحثه على اتباع طريق الخير والرشاد ، مثل : الحياء ، والنبل ، والتسامح ، والميل إلى المسالك النزيهة والأساليب الفطرية الجميلة.

وآخر دركات هذا التدهور والانحلال أن تجري حياة المرء العملية بأكملها على سبُل الشيطان ، وعندما يصل الأمر بطائفةٍ ما إلى هذه الغاية ، فإنها لا تستحق شيئاً سوى اللعنة، فلا تلبث أن تبتعد أقصى مراحل البعد عن الرحمة الإلهية ، وتمسخ إنسانيتها مسخاً ، وتعيش عيشة الوحوش والبهائم منحرفةً عن خطا الفطرة المستقيم !

إن عقل الإنسان هو الذي يحول دون اندفاعه وراء شهواته ونزواته اندفاع الأعمى،ولكن حين يستحوذ على الإنسان مشاعر البغض والعداوة والعناد يندمج عقله تحت هواه،ويفقد فاعليته وإيجابيته، فرغم كونه- وقتئذ - يبقى في ظاهر الأمر إنساناً،إلا أنه يستحيل حيواناً من حيث باطنه،وقد يكون بمستطاع رجلٍ ذكي الفؤاد،نافذ البصيرة أن يعرف عقب النظر إليه أي حيوان يختفي وراء هيكله البشري الظاهري !!

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ: المال الحرام ، وأفحشه الرشا.

الرَّبَّانِيُّونَ: عُباد اليهود ، أو العلماء الفقهاء.

وَالأَحْبَارُ: علماء اليهود.

إن المدّ الإسلامي المتصل وتعداد المسلمين المتزايد يوما بعد يومٍ ، ملأ نفوس عددٍ غير يسير من يهود المدينة رعبا وفزعاً ؛ فلم يعودوا يطيقون أن يتصدوا لمناوأة الإسلام مناوأة صريحة ومكشوفةً ؛ فلجؤوا إلى التظاهر بالإسلام من خلال أداء كلمات الإيمان والتسليم بألسنتهم ، على أنهم ظلوا كما كانوا من قبل - متشبثين بدين آبائهم الموروث ، ويغيب عن هؤلاء وأمثالهم أنهم لا يتعاملون مع أي إنسانٍ في واقع الأمر ، بل يتعاملون مع الله ، والله هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والضمائر ! وأنه تعالى سيحكم على كل إنسانٍ باعتبار الحقيقة ، وليس بناءً على محض الكلمات التي كان قد لفظها يوماً من أجل منفعة أو مصلحةٍ ما!!

وكانت طبقة الخواص من اليهود حينئذ تضم صنفين : أحدهما ، الربّيون أو الربانيون، ويمكن أن يطلق عليهم «المشائخ»، وثانيهما الأحبار ، الذين كانوا عندهم بمنزلة الفقهاء وعلماء الشريعة ، على أن كلا الصنفين كان قد اتخذ من الدين ورده الذي يتلوه بالغدوّ والآصال ، كما أن صرح قيادتهم كان قائماً على أساس من الدين ، وباسم الدين نفسه كانت تنثال عليهم مبالغ مالية ضخمة ، غير أن سر قيادتهم وسُمعتهم الشعبية العريضة في إرضاء العوام وليس في إرضاء الربّ ، ويبدو أن كلامهم ونشاطهم كله ليس إلا من أجل الدين ، والدين وحده ، ولكن ذلك لم يكن إلا تجارةً دنيوية رخيصةً كانت تُمارس باستغلال شعار الدين إنهم كانوا يعطون للناس باسم الدين الشيء نفسه الذي كانوا قد استحبوه لأنفسهم بغير الدين،أي تسويغ التظاهر بلباس الدين بدون التمسك الفعلي بتعاليمه ، وهو نوع من التدين يخنق روح الدين نفسه !!

إن الدين المحبب إلى الله هو دين التقوى ، يعني أن يعيش الإنسان بين أبناء جنسه ، فلا ينطلق لسانه بكلمات الإثم ، وأن يكون متحرزا غاية التحرز من الطرق المحرمة في نشاطاته العملية ، ومتحرياً العدل والإنصاف في التعامل مع جميع الناس ، دون أن يَظلم أحداً أو يبغى عليه ، غير أن نفس الإنسان دائماً ما تدفعه دفعاً نحو اتجاه المادية والنفعية، فالإنسان يريد أن يمارس حياة لا تُملي عليه ضرورة النظر إلى الصواب والغلط إنما تستوجبه رعاية مصالحه ومنافعه الذاتية ، وكان عامة اليهود على هذا الوضع ؛ مما كان يفرض على خاصتهم أن يقوموا بنهيهم عن ذلك ، وإرشادهم إلى طريق الخير والمعروف، ولكنهم لاذوا بالصمت، كما تم بينهم وبين العوام تفاهُم غير منطوق ، ثم نشروا ديناً بين أوساط العوام انطوى على ضمانٍ أكيدٍ للنجاة ، والبلوغ إلى الدرجات العلا من غير حاجة إلى إحداث أي تغيير حقيقي في الحياة .

إن هؤلاء الخواص لم يتناولوا حياة عامتهم الحقيقية بالشجب والانتقاد،وبدلاً من ذلك كانوا يتغنّون أمامهم بأقاصيص خرافية كاذبةٍ عن فضائل الملّة اليهودية،ويصبغون معاركهم القومية بصبغة الدين ويبشرونهم بأن قصوراً شامخاتٍ ستشيد في جنة

الخلْد،فيما إذا قاموا بإعادة كذا وكذا من الأعمال الرسمية للغاية .

وإنه لعمل متناهٍ في القبح والشناعة عند الله أن ينشر أحد بين الناس ديناً لا يستوجب القيام بتغيير الحياة الحقيقية العملية تغييراً جذرياً ملموساً ، بينما يضمن الفوز بالجنة على محض الاهتمام بمراسم سطحية ومظاهر خلابة فارغة !

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۙ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

مَغْلُولَةٌ: مقبوضة عن العطاء بخلا.

وعندما أكد القرآن على الإنفاق في سبيل الله ، وإعطائه ((القرض الحسن)) ، فاتخذ منه اليهود موضوع سخرية واستهزاءٍ ، فيقولون : إن الله فقير وعباده أغنياء ، وإن الله يُعاني في هذه الأيام من حالة العُسر وضيق ذات اليد ، لذا يطلب منهم الدين!! (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) ولم تكن أقوالهم تلك موجهةً أساساً إلى الله ، بل إلى الرسول والقرآن ، فقد علموا جيداً أن الذات الإلهية أعلى وأرفع من كل نقصٍ وعوزٍ ، وإنما يهدفون من أقوالهم إلى إيهام السذّج البسطاء من الناس بأن هذا النبي ليس بنبي صادقٍ، وأن القرآن ليس بكتاب الله، إذْ لو كان القرآن كتاباً منزلاً من عند الله لما كان فيه ما فيه من هذه السخافات والمضحكات (نعوذ بالله من ذلك).

ومثل هذه الأقاويل وأشباهها تدل على أن أصحابها ليسوا من العاطفة الدينية الصادقة في شيء ، وأنهم يعيشون على مستوى القسوة والبلادة ، وفي أعمق درك من انعدام الوعي وجمود الفكر!!

وإن إنكار اليهود لهداية القرآن لم يكن محض إنكارٍ بالمعنى البسيط، بل ناشئ عن

زعمهم القائل إننا الشعب المخلص أو مضمون النجاة ، فما الذي يحوجنا إذن إلى الاعتراف بأية هداية أخرى !! ، وإنه إذا تخدّرت عقول قوم بنفسية الغرور والتفاخر من هذا النوع ، تولدت في نفوسهم أشد وأخطر أنواع العُجب والأنانية ، ولا يكاد يرضى هؤلاء بالتخلي عن أنانيتهم وعجبهم ذلك حتى في أثناء تعاملاتهم مع الآخرين في الحياة اليومية ، مما يُورث البغضاء ويملأ المجتمع فرقة وعناداً وعداوةً !

إن دعوة النبي تتمثل في حث الإنسان على التمسك بدين الطاعة الإلهية ذاته ، الذي يدين به الكون بكل ما فيه، وهذا هو إصلاح الأرض ، إذًا فإن الذين يتصدوْن الآن لعرقلة الدعوة النبوية ، إنما يعملون على إثارة الفساد في الأرض .

بيدْ أن الإنسان تنحصر حريته في أن يقذف بفساده الداخلي إلى الخارج فحسب ، ولا أحد يملك الحرية لتقرير مستقبل غيره أو التصرف في نصيبه المفروض من القدر الأعلى.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ: معتدلة ، وهم من أسلم منهم.

إن السبب الرئيسي وراء ظواهر الانحراف والضلال يرجع إلى عتو الإنسان وتمرده، إذْ لو كان يخاف الله حقاً فلسرعان ما يدرك الكلام المنزل من عند الله من غيره ، فإن نفسية الخوف ستقضي على كل ما تعتمل في داخله من دوافع ومحركات أخرى، ولن يلبث المرء بالتالي أن يعرف كلام الله على الفور ، ويبادر إلى الإيمان به ، وإذا صرف المرء اهتمامه نحو الله ، صار مستحقاً لتنصرف عنايات الله تعالى إليه ، فيقابله الله بتطهيره من

نقائصه البشرية، وتبوئته بعد الموت منزلاً كريماً في حدائق الجنة ذات البهجة والنعيم المقيم.

إن سيئات المرء ، أو نقائصه ومآخذه النفسية تقف عثرةً في طريق تقدمه نحو الجنة ، ولا يسعد بالوصول إلى الجنة إلا الشخص الذي كتب الله له التوفيق للتغلب على مآخذه ونقائصه النفسية !!

وحينما تقوم دعوة الحق ، فإنها لا تلبث أن تصير مصدر القلق والإزعاج للذين يحتلون مكان الرئاسة في ظل النظام السابق ؛ وذلك لحذرهم من الانضواء تحت رايتها فستصبح مصالحهم الاقتصادية وأمجادهم القيادية هباءً منثوراً.

غير أن هذا الحذر ليس إلا نتاجاً لضيق أفق النظر ، فيغرب عن أصحابه أن الدعوة التي يرمقونها بعين القلق والانزعاج ، إنما ظهرت إلى الوجود لاختبار جدارتهم وصلاحيتهم، فإن استحقاقهم لإنعام الله وجوائزه ، أو عدم استحقاقهم لذلك ، لن يترتب على ما يتخذونه هنا من تدابير تحفظية ، بل إنما يتوقف على موقفهم الذي يقفونه من دعوة الحق ، وعلى هذا الاعتبار فكأن لجوءهم إلى إنكار دعوة الحق هو الشيء الذي يسحب جدارتهم واستحقاقهم عند الله تعالى !!

إن الأمم الكتابية دائماً ما تصطنع ديناً مزعوماً مزيفاً عن طريق الإفراط أو التفريط في التعاليم الإلهية الأصيلة ، وعلى توالي الأيام يألفه أبناؤها بدورهم ويعتبرونه الدين الإلهي الأصيل ، وعندما يظهر أمامهم دين الله الحق القويم فيصابون بالانزعاج والنفور منه ، لعدم استئناسهم به .

وهكذا كان حال اليهود والنصارى ، فقد ظلت أكثريتهم عاجزةً عن الظفر بصدق الإسلام ماعدا أفراداً قلائل منهم - كالنجاشي ملك الحبش ، وعبد الله بن سلام وغيرهما - الذين كانوا قائمين على جادة التوسط والاقتصاد ، فلم يصعب عليهم أن يدركوا صدق الإسلام ، وقد بادر هؤلاء باعتناق الإسلام كما لو كانوا يسيرون على

الدرب ذاته من ذي قبل ، وإنما جاء انضمامهم إلى جماعة المسلمين امتداداً لمسيرتهم ومواصلة لها !

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

عندما بُعث نبي الإسلام ﷺ لم تكن جزيرة العرب خالية من المنادين بالدين أو الممارسين له ، بل إن أساس المجتمع العربى كان قائماً على شعار الدين، وكان ثمة أناس كثيرون قد بلغوا أعلى مراتب الإمامة والقيادة باسم الدين ، وتصلهم مبالغ مالية كبيرة بعنوان الدين ، كما كان احتلال المناصب الدينية في المجتمع آنذاك يُعد رمزاً للمجد والفخار ، وبالجملة فلم يكن الدين أمراً غريباً أو شيئاً غير مألوفٍ لدى سكان الجزيرة العربية، ولكن بالرغم من ذلك فقد ووجه عليه الصلاة والسلام بمعارضةٍ أشد وأعنف ما يكون من قبل العرب ، فما تعليل هذه الظاهرة إذن !!

يرجع السبب في ذلك إلى أن ديناً مزعوماً كان قد انتشر ونال رواجاً وقبولاً واسعين بينهم حاملاً شعار الدين الإلهي ، ونتيجةً لتقاليد القرون المتطاولة ظهرت إلى الوجود مقاعد الشرف والوجاهة تحت عنوان هذا الدين المزعوم ، كما ساعد ذلك أيضاً على إيجاد صورٍ كثيرةٍ مختلفةٍ للمنافع والمصالح ، وفي بيئة كهذه ، لما قام نبي الإسلام ﷺ بتقديم دعوة الدين الخالص إلى الناس خُيل إليهم أنها جاءت لكي تُلغي اعتبارهم الديني وتسحب امتيازاتهم ، فامتلأت نفوسهم حذراً وخوفاً من أن الدين الجديد إذا شق طريقه نحو القبول والانتشار على نطاقٍ واسعٍ، فسينهار تلقائياً هيكلهم الديني ، الذي لم يبلغوا إلى ما بلغوا إليه من قمة المجد والسيادة إلا في ظله !!

وهذا الوضع يشكل خطورةً كبيرةً للداعي ، فيصير قيامه بعمله الدعوي على مرأى ومسمع القوم بمثابة الصدام والتقاتل مع سلطات العصر الدينية ، إذْ يقول لنفسه: إنني لو قمت بتبليغ الدين الحق، بدون تنازل أو مصالحة أو استسلام سأقابل برد فعلٍ

قاسٍ وعنيفٍ للغاية، وأجعل من نفسي موضع السخرية والإهانة والتذلل ، وستتعرض أسباب معيشتي للإتلاف والتدمير ، وستُتخذ ضدي إجراءات عدوانية تعسفية ، وسأُحرم من الأعوان والأنصار فأبقى وحيداً في الساحة !!

فالداعي يجد نفسه أمام خيارين أحلاهما مرّ : القيام بمسئوليات الدعوة ، مع العلم بأن ذلك يؤدي إلى أن ينفلت زمام المصالح الدنيوية من يده ، وأما إذا قام برعاية المصالح الدنيوية، فإن أداء العمل الدعوي على أتم وجهٍ يبدو مستحيلاً ، فما العلاج؟ ، هنا يلعب وعْد الله دوره في تركيز اهتمام الداعي ، لقد وعد الله - جل وعلا - بأنه سيكون كافياً للداعي شرّ الناس كله فيما لو سخّر نفسه لتبليغ الرسالة الإلهية وحدها ، لذا فينبغي للداعي أن يركز جهوده واهتماماته على الوفاء بمقتضيات الدعوة ، وأما بالنسبة للمصائب والمحن التي تُصبّ عليه من قبل الأمة المدعوّة صباً ، فليتوكل على الله - جل جلاله !

إن ردّ فعْل المخاطبين أمر طبيعي ، ولا مناص للداعي عن مواجهته على أية حالٍ ، غير أن آثاره ومضاعفاته تكون محصورةً في نطاق المقتضي اللازم لسنة الابتلاء الإلهية ، دون أن تتعداه إلى مدى أبعد من ذلك ، فلن يحدث أن يمتلك المعارضون من القدرة والطاقة ما يمكّنهم من وقف المسيرة الدعوية ، والحيلولة دون وصولها إلى غايتها المرسومة، إن بلوغ دعوة حقة إلى هدفها الدعوي المنشود يكون تدبيراً إلهياً ، ومن ثم فلابد أن يتحقق ذلك عاجلاً أو آجلاً ، وأما إيمان المدعو بها بعدئذٍ ، فتلك مسئولية تقع على عاتقة ، ويتوقف إنجازها على رغبة المدعو ، وإرادته الذاتية سلباً وإيجاباً.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

﴿يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

فَلاَ تَأْسَ: فلا تحزن ولا تتأسف.

وَالصَّابِئُونَ: عبدة الكواكب أو الملائكة مبتدأ خبره.

على أن اليهود كان قد وصل أمرهم إلى حد لم تعد بينهم وبين دين الله أية صلةٍ عمليةٍ ، فما كان أفرادهم متمسكين فعلاً بأحكام الشريعة ، ولا كانت معاملاتهم ،وشئون حياتهم تجري وفقاً لمرضاة الربّ ، إلا أنهم كانوا قد اخترعوا عقيدةً نُسجت عناصرها من الأماني الجميلة ، وهي تقول بأن نجاتهم عند الله مضمونة مؤكدة ، فعاشوا في أساطير تتغنّى بفضيلتهم القومية ، وأقاصيص تسبح بقدسية أسلافهم العظام ، ولاقيمة عند الله لهذه الآمال والأماني الحالمة ، وإن القيمة عند الله في التزام المرء بوصايا الله وأحكامه ، وتأسيس حياته الحقيقية على دين الله ، لا غير.

إن دعوةً تجيء مؤكدةً على أن القيمة عند الله للعمل دون الآمال والأماني ، طالما تواجه برد فعلٍ عنيفٍ من قبل الذين يمارسون حياتهم على أساس من الأماني والآمال الزائفة، فإنهم يرون في دعوة كهذه معول هدمٍ لصرح آمالهم الجميلة ، ويصير هذا الوضع بمثابة محنةٍ شديدة لهؤلاء ، فيتصدون لمعارضة مثل هذه الدعوة معارضةً أشد ما يكون ، وهنالك تظهر عبادة النفس المقنعة بعبادة الله الظاهرية ، تظهر للعيان سافرةً مكشوفةً ، وإن الدعوة التي كان ينبغي لهم أن يستمدوا منها غذاءً ربانياً ، إذا بهم يستمدون منها محض غذاءٍ للإنكار والطغيان!!

إن الأجيال التالية لأوائل المؤمنين بالأنبياء المبعوثين في العصور السابقة ، تتخذ شكل شعبٍ أو أمةٍ معينةٍ ذات كيان مستقلٍ على تعاقب العصور ، وقد يصل الأمر فيما بعد إلى أن العمل بنماذج الأنبياء ينعدم ويتلاشى ، لخمود جذوة الشوق للتآسي بقدوتهم في نفوس أفراد الأمة ، بينما تنتشر بينهم القصائد المشحونة بفضائلهم وأمجادهم التاريخية المتمثلة في صورة قصص وأساطير خرافية انتشاراً واسعاً جداً ،

وهكذا يبدأ أبناء كل أمةٍ - وبخاصةٍ الأمة الكتابية - يقولون : إننا أفضل البشر ، وخير الأمم ، وأن نجاتنا مضمونة مكفولة ، وأننا أرفع الناس درجات عند الله تعالى ، غير أنه لا قيمة عند الله لهذه الديانات أو المذاهب الطائفية ، فإن قضية كل شخصٍ ستُطرح وتُناقش في محكمة الله على حدةٍ ، أي بصفة فردية، وإن قرار الله عن مستقبله سيكون مبنياً على عمله الذاتي ، وليس مبنياً على شيء آخر سواه .

إن إقامة كتاب الله يعني أن يستقر الإيمان بالله في أعماقك ، ويستولي عليك الخوف من مؤاخذة الآخرة ، وأن تمارس حياتك بين بني جنسك على أساسٍ من العمل الصالح والسلوك الحسن ، وهذا هو أصل الدين بعينه ، وكل فردٍ مطالب باختياره في حياته العملية، وإنه لا قيمة للأمة الأمينة على الكتاب السماوي إلا إذا كان أبناؤها قائمين متمسكين بهذا الدين الإلهي ، ولا يلبثون أن يفقدوا كل قيمتهم عند الله بعد انحرافهم عنه، حتى يصيروا أهون شأناً وأقل قيمةً من الكفار والمشركين الصُرحاء!!

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

فِتْنَةٌ: بلاء وعذاب شديد.

لقد أخذ الله من اليهود عهد الإيمان والطاعة له على يد موسى - عليه الصلاة والسلام - وقد ظلوا قائمين على هذا العهد لفترةٍ من الزمن يسيرةٍ ، ثم أخذ الفساد يتفشّى بينهم ، فبعث الله فيهم رجالاً مصلحين للتذكير بعهدهم وإيقاظهم من غفلتهم، غير أن تحذيرات المصلحين لم تزد اليهود إلا عناداً وطغياناً ، فبدلاً من الإصغاء إلى النصيحة ، كبتوا أصوات الناصحين الربانيين ، وسفكوا دماء عدد كبير منهم ظلماً

وعدواناً.

ولما بلغ طغيانهم وعنادهم هذا المبلغ، سلّط الله عليهم نبوخذ نصر (بختنصر) ملك بابل ونينوى (العراق)، الذي حمل في ٥٨٩ ق.م على أورشليم، فدمّر على اليهود مدينتهم المقدسة، وأخذ معه سبايا من اليهود إلى مملكته، ليتخذ منهم سخرةً.

وقد كان لهذه الفاجعة أثرها في إلانة قلوب اليهود، فتضرعوا إلى الله تائبين مستغفرين، وقد انصرفت العناية الإلهية إليهم، ففتح الله لهم طريقاً إلى الخلاص مما هم فيه من وحشة النفي وهوان السخرة، وذلك على يد الإمبراطور الإيراني كورش الثاني [Cyrus II] وهو الذي قام بغزْو الكلدانيين في عام ٥٣٩ ق.م، فانتصر عليهم انتصاراً ظاهراً واحتل بلادهم، وكان من أول أحكامه بعد الانتصار، أن سمح لليهود بالعودة إلى أورشليم.

ومن هنا بدأ فصل جديد رائع من حياة اليهود وتاريخهم، فاستقامت لهم الأمور، ولكن سرعان ما أدركتهم الغفلة مرةً أخرى، فعادوا يمارسون البغي والطغيان كسابق عهدهم، فتكرر الإنذار والتحذير الإلهي لهم ثانياً كذلك على ألسنة الأنبياء والمصلحين المبعوثين من عند الله، غير أن ذلك كله لم يُجد في تنبيههم وإيقاظهم من رقدتهم تلك شيئاً، فقتلوا سيدنا يحيى عليه السلام و(على زعمهم) سيدنا المسيح، مما أثار غضب الله عليهم، فسلط الله عليهم تيتوس [Titus] - الإمبراطور الروماني - عام ٧٠ من الميلاد، الذي غزا بلادهم وأحالها خرائب موحشةً، فلم يقم لليهود من بعد ذلك قائمة! ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

إن الأمم الأمينة على الكتاب السماوي طالما يغلب على عقول أبنائها في العصور التالية الاعتقاد بأنهم صفوة الله وخاصته، وأنهم بذلك لن يُؤاخذوا على شيء من سلوكهم وعملهم مهما كان فاسداً وسيئاً، ومع أن التعاليم الإلهية الأصيلة تكون منطويةً على تصريحات صارخةٍ تشجب هذا النوع من الاعتقاد بشدةٍ، غير أنهم لا

يُعيرونها أي اهتمام، بل يتعامون ويتصامون عن ذلك ، إنهم يحبسون أنفسهم في هالةٍ أو قوقعةٍ من العقائد المزعومة والأساطير الافتراضية الباطلة ، مما يجعلهم لا يكادون يبصرون ولا يستمعون إلى التحذيرات الإلهية.

إن تاريخ اليهود ليشهد بأن أمةً كتابيةً ، إذا ما صارت مغلوبةً على أمرها ، فجُعلت في ((قبضة أعدائها وتحت رحمتهم)) فتمر بفترة اختبار إلهي ، والمقصود من ذلك هو أن يتم إيقاظ الأمة من خلال عقوبةٍ خفيفة طارئةٍ ، فإنْ أسفر ذلك عن استيقاظ مشاعر العبودية الإلهية في نفوس أبناء الأمة ، رُفعت تلك العقوبة عنها ، وأما إذا كانت النتيجة غير هذا ، فإن الله يطردها من رحمته طرداً ، بحيث لا تتوجه إليها عنايته تعالى أبداً !

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

خَلَتْ: مضت

وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ: كثيرة الصدق مع الله.

يَأْكُلانِ الطَّعَامَ: كسائر البشر فكيف تزعمونه آلها.

أَنَّى يُؤْفَكُونَ: كيف يصرفون عن تدبر الدلائل البينة وقبولها.

لقد زوّد الله تعالى سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - بمعجزاتٍ باهرةٍ ليعلم الناس صدق نبوته فيؤمنوا به، ولكن النتيجة ظهرت بالعكس، فاعتقد المسيحيون، نظراً لمعجزاته تلك، أنه إله، وأن الله حالٌّ في ذاته متحد بها اتحادا ذاتياً، بينما رفضه اليهود رفضاً باتاً، متهمين إياه - عليه الصلاة والسلام - بأنه ساحر ومشعوذ، لقد بُعث سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - من أجل هداية البشر، ولكن طائفةً استمدت من غذاء الشرك، والأخرى من غذاء الكفر والجحود !!

إن الطعام هو العلامة الصارخة على غاية احتياج المرء، فإن المحتاج للطعام، محتاج لكل شيء، إذن فكيف يمكن أن يكون هذا المحتاج للطعام إلهاً يعبد !؟! وكذلك الأمر بالنسبة إلى النفع والضرر، إن حصول النفع أو الضرر لأحدٍ ليس بحادثٍ بسيط، بل من جملة الوقائع التي يتطلب إيجادها مساعدة الكون بأكمله، وليس هنالك أحدٌ يقدر على تهيئة الأسباب الكونية من هذا النوع غير الله تعالى، ولذا فلا يستحق أحد من البشر أن يُرفع إلى مقام الألوهية.

وإنه إذْ يتخذ المرء أحدًا غير الله موضع عقيدته ومحبته، فيكون ناشئا عن عاطفة خفية وراءه، وهي القائلة بأنه يتمتع بدرجة كبيرة وامتيازات خطيرة الشأن في عالم الله، وأنه يستطيع أن يقف إلى جانبه كشفيعٍ وناصرٍ عند الله تعالى، غير أن الآمال من هذا النوع لا تعدو أن تكون آمالاً زائفة محضةً، إن مدى عجز المخلوقات وعدم قدرتها على شيء بإزاء الخالق العظيم ليس أمراً مكشوفاً للعيان في عالم الامتحان الراهن، مما يجعل المرء عرضةً لسوء الفهم والاعتقاد، ولكن إذا أزيح الستار عن وجه الحقائق كلها في اليوم الآخر، فسيرى المرء يومئذ بعيني رأسه ما أوهن الأركان وأخفها وزناً، تلك التي كان يأوي ويستند إليها في الدنيا من دون الله تبارك وتعالى !!

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ

ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

لاَ تَغْلُوا: لا تجاوزا الحد ولا تفرطوا.

غَيْرَ الحَقِّ: غلوا باطلا.

إن سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - كان في اعتقاد الرعيل الأول من تلاميذه ((إنساناً مرسلاً من الله)) ، وقد ظلوا - بعض الوقت - يعتبرونه ((إنساناً ورسولاً من الله)) ،ولكن عندما بدأ نفوذ دينه ﷺ يمتدّ ، وجاوز حدود الشام ، فاستقبلته فلسفات مصر واليونان ، إذْ دخل في دائرة المسيحية أناس تأثرت عقولهم بتيارات العصر الفلسفية غاية التأثر واصطبغت بصبغتها ، فتضافرت العوامل الداخلية والبواعث الخارجية على الانتقال بدين المسيح إلى طورٍ جديدٍ، فبدأت محاولات تفسير المسيحية بالأسلوب الفلسفي السائد إذْ ذاك!

ولقد كانت كلمة فلاسفة مصر واليونان العليا في طول العالم المتحضر وعرضه في ذلك العصر ، مما جعل أذكياء العصر يفكرون في ضوء مناهجهم الفكرية. إن فلاسفة اليونان اصطنعوا - بناءً على قياساتهم العقلية - صورةً خيالية للعالم ، وكانوا يفسّرون الحقيقة في شكل أقانيم ثلاثة وهي : الوجود ، والحياة ، والعلم.

وإذا كان العلماء المسيحيون قد انبهرت أذهانهم بهذه الأفكار والتصورات ، إلى جانب رغبتهم في استمالة نفوس طبقة العصر الذكية وجذبها إلى الديانة المسيحية ، أخذوا يبذلون جهوداً مكثفةً للتوفيق بين ديانتهم والاتجاهات الفكرية السائدة في عصرهم ، فأعدوا للمسيحية تفسيراً من شأنه أن يطبع دين الله بطابع ((الثالوث))، حتى يبدو للناس منسجماً تمام الانسجام مع شوا كلهم الذهنية ، فيتلقوه بالقبول ، فانطلق أولئك العلماء يقولون : إن الحقيقة الدينية تتمثل في نوعٍ من ((التثليث)) ، والذي يتألف من "الأب" وهو أقنوم الوجود ، ومن ((الابن)) وهو أقنوم الحياة ، ((وروح القدس" وهو أقنوم العلم ، ومن أجل تكميل هذا المذهب الكلامي أضيفت إليه تصورات

مزعومة أخرى مثل قولهم : إن المسيح هو مظهر جسدي «للكلمة» ، وزعمهم بأن كل إنسان قد صار خاطئاً بعد خطيئة آدم الأولى ، فأرسل الله ابنه ليكفر عن خطايا البشر بدمه وحتى يضمن لهم بذلك النجاة والسعادة.. إلخ ، وهكذا فمن خلال الانصهار في بوتقة الأفكار والتصورات المصرية واليونانية والرومانية ظهر إلى الوجود في القرن الرابع من الهجرة ، ذلك الشيء الذي يطلق عليه اليوم «الديانة المسيحية»!!.

إن سبب الانحراف عن «سواء السبيل» يرجع في أكثر الأحيان إلى انبهار الناس بأفكار الأمم الضالة، وأخذهم بالتالي في صياغة الدين في قالب أفكارها ، فمع إيمانهم بدين الله ، يعمدون إلى تفسيره مطابقاً ومنسجماً مع تلك التيارات الفكرية الغالبة ، ومن ثم يعتنقون دينا غير إلهي في جوهره بعنوان الدين الإلهي ، كما أن النصارى قاموا بصياغة دينهم في قالب أفكار الأمم الوثنية المعاصرة لهم ، ثم أخذوا يقولون: إنه الدين المطلوب والمقبول عند الله تعالى !! وقد يتخذ هذا الانحراف ، في بعض الأحايين ، لوناً آخر ، فيتم إفراغ الدين وصوغه في قالب الطموحات والتطلعات القومية.

ويمثل اليهود نموذجاً تاريخياً لهذا النوع الثاني من التحريف ، إنهم قد اخترعوا لدين الله تفسيراً جعل منه «مصدقاً»لحياتهم الدنيوية على علاتها ، بدل أن يجعله متحكماً في شئونها ، مغيراً ومصححاً لمسارها ، وعلى أن المسلمين ليس بإمكانهم أن يدخلوا مثل هذه التفسيرات المزيّفة في نصوص الكتاب الإلهي ، غير أنهم يستطيعون أن يفعلوا ، بكامل الحرية، فيما عدا النص القرآني ، كل ما فعلت الأمم السابقة !.

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ

﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

سَخِطَ الله: غضب عليهم بما فعلوا.

ومن شأن الإيمان أنه يُرهف حس المرء بالنسبة لممارسات الظلم والمنكر ، فلا يلبث أن يرى أحداً وهو يظلم غيره ، أو يتعاطى منكراً حتى يشعر بلهفةٍ عارمةٍ تبعثه على المبادرة الفورية لمنعه عن ذلك حالاً ، ومن ثم فعلاقة صاحب الإيمان مع الأشرار والظالمين لا تكون علاقة المودة والصداقة ، بل علاقة الهجر والمفارقة.

غير أن جذوة الإيمان عندما يخبو ضرامها ، فإن المرء يفقد رهافة حسه ، إلا فيما يتصل بذاته أو يمس مصالحه ، فلا يرى من منكرٍ أو سوءٍ إلا ما كان موجهاً إلى نفسه مباشرةً، وأما السوء الموجّه إلى الآخرين ، فيقف منه على الحياد التام !!

ولم يكن هذا الانحطاط الذي أصاب بني إسرائيل يعني أنهم كانوا قد نبذوا الحديث عن الفضائل والتغنّي بها بألسنتهم ، إذْ ما انفك علماؤهم وخاصتهم يُلقون بين الناس مواعظ بليغةً وخطباً رائعة تروق الأسماع ، ولم يعودوا من الجدية والإخلاص بحيث ينبرون لمحاربة الظلم والمنكر أينما وُجدا ، والأخذ على يد الممارس لهما كائناً من كان!

يقول سيدنا داود - عليه الصلاة والسلام - عن يهود زمانه : ((فسدوا ، ورجسوا بأفعالهم ليس من يعمل صلاحًا))[1].

بيدْ أن مزاميره عليه السلام تتضمن - مع ذلك - شواهد على أن ما استوجب اللعنة على اليهود ، إنما هو ذلك المسلك الإزدواجي أو التناقض الصارخ البغيض الذي كانوا يعيشونه بين قولهم وفعلهم أو بين ظاهرهم وباطنهم ، فقد وصفهم في المزمور الثامن والعشرين وهو يتضرع إلى الرّبّ بقوله : ((لا تجذبني مع الأشرار ، ومع فعلة الإثم، المخاطبين أصحابهم بالسلام ، والشر قلوبهم)).

---

(١) انظر: المزمور الرابع عشر.

كما يقول سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - عن معاصريه اليهود : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون ! لأنكم تأكلون بيوت الأرامل ، ولعلةٍ تطيلون صلواتكم ، إنكم تُعشرون النعْنع والشِبث والكمّون ، وتركتم أثقل الناموس ؛ الحق والرحمة والإيمان ، أيها القادة العُمْيان الذين يعفون عن البعوضة ، ويبلعون الجمل ، هكذا أنتم ، من خارج تظهرون للناس أبراراً ، ولكنكم من داخلٍ مشحونون رياءً وإثماً!!»[1].

فقد كان علماء اليهود يبينون للناس الدستور أو الناموس الإلهي ، ويطيلون صلواتهم، ويؤدون زكاة محاصيلهم الزراعية ، غير أن مواعظهم لم تكن تعْدو أن تكون كلمات طنانةً يتم تكرارها وإعادتها في مختلف المناسبات دون أن تُترجم إلى واقع عملي معاشٍ ، وربما كانوا يبالغون في الاهتمام بإقامة أحكامٍ ظاهرية لا تكلف عناءً أو مشقةً كبيرةً ، ولكن سرعان ما تزل أقدامهم فيما إذا كانت الضرورة قاضية بإنصاف المظلوم وردّ الحق إلى صاحبه ، أو الرحمة والعطْف على ضعيفٍ مسكينٍ ، أو كان الموقف يفرض عليهم تنفيذ أمرٍ من أوامر الله على حساب مصالحهم الذاتية ، ويأخذون في مناصبة العداء لشخصٍ يقوم بلفت أنظارهم إلى أخطائهم ويدعوهم إلى التخلي عنها ، وهذا هو الشيء الذي جعلهم أهلاً للعَّنة والغضب الإلهي.

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا

---

(١) إنجيل متى : الإصحاح الثالث والعشرون.

رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ: تمتلئ أعينهم بالدمع فتصبه.

مما يُستفاد من الآيات الواردة هنا أن الجنة قد تكون مكافأة «لقولٍ» ، حيث قال تعالى : ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى ﴾ ، والسؤال : ما هو القول الذى جعل من قائليه أهلاً للجنة الأبدية؟ إن ذلك القول كان ممثلاً لوجودهم بأكمله ، إنه كان الصراخ والأنين المنبعث من شخصيتهم المتحّطمة لثقل وطْأة المعرفة الإيمانية ! فحين سمع هؤلاء كلام الله عليه أدركوا الحق الذي كان منطويا عليه إدراكاً دقيقاً وشاملاً ، وبالتالي نفذ الحق إلى أعماق قلوبهم وعقولهم ، وأحدث في نفوسهم انقلابا تحول معه اتجاه طموحاتهم وآمالهم من جانب إلى آخر ، وانهارت كل جدران التعصب وحواجز المصلحة ، وانضموا إلى الحق ، فصاروا شهداء الحق ؛ ومعنى الشهيد هو أن تتجسد حقيقة عليا في ذات إنسانٍ ، والآن لم يعد القرآن عندهم محض كتابٍ يُتلى ، بل صار آيةً حيةً على مالك الكون وخالقه العظيم ، وعلى أن هذه التجربة الربانية التي مرت بهؤلاء تم التعبير عنها بشكل كلماتٍ ، غير أن كلماتهم تلك لم تكن مجرد كلماتٍ تُقال فقط ، بل كانت زلزالاً عنيفاً هزّ وجودهم بأكمله، فلم تتمالك أعينهم أن فاضت بالدموع!

وليس «القول» من حيث حقيقته وجوهره ، عبارةً عن نطقٍ أو أداءٍ لساني ، إنه الصورة الأسمى لإضفاء المعنوية على عمل الإنسان ، والذي لا يتمتع بصلاحية استخدامه في الكون المعلوم أي مخلوقٍ آخر غير الإنسان ، إن قولاً حقيقياً لهو حادث أدق وألطف وأهم مغزى ودلالةً يقع في رحاب الكون ، إذْ القول هو الإظهار الأكبر لذات الإنسان ، إن القول عمل ناطق ، فلو أن شخصاً أثبت عبوديته على مستوى القول الحقيقي لصار مستحقاً للجنة بكل تأكيد !

إن الكِبر هو العقبة الكبرى التي تحول دائماً دون الاعتراف بالحق ، ولذلك تجد المصابين بهذا الداء العضال يقابلون دعوة الحق بمعارضةٍ أشد ورد فعل أقسى وأعنف ما يكون، أما الذين لا تنطوي قلوبهم على شيء من الكبر ، وإن كانوا مصابين بأي ضلالٍ أو انحرافٍ آخر ؛ لا يذهبون في مخالفتهم للحق إلى حدّ اللدد والعناد ، مما يفتح لنا باب الأمل في أنهم عسى أن يُوفقوا لقبول الحق والانضواء تحت رايته !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ: هو أن يحلف على الشيء معتقدا صدقه والأمر بخلافه أو ما يجري على اللسان مما لا يقصد به اليمين.

عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ: وثقتموها بالقصد والنية .

إن علاقة العبد بربه علاقة حية ؛ تقوم على مستوى النفسيات والمشاعر ؛ وهي بذلك حادث داخلي بكل معنى الكلمة ، غير أن هذه العلاقة الداخلية حين يعتريها الضعف والفتور في زمن الانحطاط الديني ، فيغلب على الناس اللجوء إلى وسائل خارجية ((مساعدة)) على إحرازها وتوطيدها بما فيها مذهب ترك اللذات الدنيوية ، الذي يُدعى ((الرهبانية)) ، حيث يُعتقد بأن الابتعاد عن الأشياء المادية سيكون سبباً في

تقريب المرء إلى الله - عز وجل!!

ولقد وقع بعض الصحابة تحت تأثير مثل هذه الأفكار الرهبانية ؛ فأرادوا ألا يأكلوا لحماً ، ولا يناموا ليلاً ، وأن يخصوا أنفسهم ، ويختاروا عيشة المتزهدين والدراويش مغادرين بيوتهم وأهليهم ، حتى حلف العديد منهم على ذلك ، فنزلت هذه الآيات تمنعهم من إنجاز ما عقدوا العزم عليه ، وترشدهم إلى أنه لن يتمكن أحد من إحراز القرب الإلهي عن طريق تحريم الحلال ، إذْ كل ما يناله المرء ، فإنما يناله متقيداً بحدود الفطرة ، وليس متخطياً إياها!.

والرهبانية الحقيقية - طبقاً للدين الإسلامي الحنيف - هي التقوى والشكر ، وتعني التقوى: أن يجتنب المرء كل ما نهى الله عنه ، فربّما تنبعث في داخله شهوة تدفعه إلى الاستمتاع والتلذذ بالحرام ، ولكنه يمسك نفسه عن ذلك من أجل مخافة الله ، وقد يثور غضبه على أحد الناس ، مما يجعله يرغب في أن يفتك به ، غير أن الخشية من الله تحول دون اندفاعه نحو القيام بأعمال تخريبية ضد أخيه ، وقد تسوّل له نفسه أن يمارس حياةً حرةً طليقةً من كل قيد شرعي أو التزام أخلاقي ، إلا أن الحذر المستقر في أعماق قلبه من مؤاخذة الله وبطشه يُرغمه على الوقوف عند حدود الله المرسومة ، وعدم تجاوزها بحالٍ من الأحوال!

وكذلك الشأن بالنسبة للشكر ، فالشاكر إذا ما حصل على شيءٍ دنيوي يُغتبط عليه، كثروة طائلةٍ، أو منصبٍ خطير ، أو سمعةٍ طيبةٍ عريضةٍ ، أو صحة وجمال بدني ، أو ما إلى ذلك من متاع الحياة الدنيا ، لم يبعثه ذلك على الغرور والبطر والإعجاب بنفسه ، زاعماً أنها نتيجةً لجهوده الذاتية ، بل يحسبه عطيةً من الله ، فيعترف بمنّه وكرمه ، وينصهر في بوتقة التواضع والممنونية للمنعم الوهاب ، وهذه الأشياء التي تربط المرء بالله ، توطد علاقة المرء بربه وقربه منه يزداد ، مادام يخشى الله ويشكر له ، ومع أن البعُد عن الأشياء المادية الفانية أمر مطلوب بلا ريبٍ ، غير أنه بعد نفسي وقلبي ، وليس بعداً جسمانياً ظاهرياً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وَالأَنصَابُ: حجارة حول الكعبة يعظمونها.

وَالأَزْلامُ: قداح الاستقسام في الجاهلية.

رِجْسٌ: خبيث قذر، نجس.

جُنَاحٌ: إثم وحرج.

طَعِمُوا: شربوا أو أكلوا المحرم قبل تحريمه.

إن شرب الخمر، واللعب بالقمار، والتماثيل المنصوبة من أجل عبادة غير الله، أو لذبح القرابين وتقديم النذور عندها باسم أحدٍ غير الله تعالى، والاستقسام بالأزلام - بمعنى التفاؤل والتشاؤم وضرب القرعة التى تشتمل على طلب المعونة من غير الله - كل ذلك أعمال شيطانية؛ ذلك لأنها تؤدى إلى التدنى والانحدار عن المستوى العقلى والسلوكى.

فالخمرة تقضي بدورها على ما يُوجد في نفس المرء من أحاسيس إنسانية لطيفةٍ، وأما القمار فقاتل لروح الإيثار والتعاون، وهكذا الأنصاب والأزْلام فهي من جملة أشياء تقوم إمّا على عواطف سطحيةٍ، وإما على أوهامٍ وأساطير خرافيةٍ!!

إن الإسلام يريد الإنسان ذاكراً لله وعابداً له تعالى وحده ، وأن يُلزم نفسه بطاعة الله وطاعة رسوله ، وهذه أمور لابد للقيام بها من أن يكون المرء من الجدية بمكانٍ ؛ على حين أن أوّل ما تقضي عليه الأشياء السالفة الذكر هو الجدّية بعينها !

والإسلام يستهدف بناء إنسان يقدر على إدراك الحقائق ، بينما الخمر تُلهي شاربها عن الحقائق كلها ، والإنسان المطلوب في نظر الإسلام هو الذي يمارس حياته متسامياً إلى ما فوق المادة ، في حين أن القمار يخلق في لاعبه ميلاً إجرامياً إلى المادية والنفعية ، والإسلام يريد أن يبني إنساناً يرتكز على أساسٍ من الواقعات ، بينما الأنصاب والأزلام تجعل الإنسان يتخبطّ في أوديةِ الخرافات والأوهام الباطلة .

والخمر تُورث بلادة الحس الزائدة ، والقمار يُولد الأثرة الزائدة ، وكلا هذين الشيئين مجلبة لمساوئ وشرورٍ اجتماعية لا تُحصى ، فالمصابون ببلاده الحس لا يعدّون عرض غيرهم عرضاً ، ولاشيء الغير شيئاً يستوجب الاحترام والرعاية ، فلا يلبث أن يبلغوا من الجرأة على الظلم والجور ، وانتهاك حرمات الآخرين والتعدي على حقوقهم، وإيذائهم بغير حقٍ إلى أقصى الحدود .

وكذلك القمار يمثل أعظم صور الاستغلال والأثرة خبثاً وشناعةً ، إذْ يحاول المقامر أن يحقق لنفسه أكبر ربحٍ على خسران الكثيرين سواه ، وإن شارب الخمر يتجرد من الإحساس بآلام الآخرين ، واللاعب بالقمار يتخذ من غيره موضوعاً للاستغلال والسلب والنهب ، والمجتمع الذي يضم أفراداً هذه خصالهم ، تُرى ، أي شيء ، سينشأ ويسود في رحابه سوى فقدان الثقة المتبادلة ، وفساد ذات البين (القطيعة) ، والعداوة والبغضاء ، والأحقاد والسخائم الملتهبة في الصدور ، والتصادم المستمر ؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ

ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ: ليختبرنكم ويمتحننكم.

وَأَنْتُمْ حُرُمٌ: محرمون بالحج والعمرة.

النَّعَمِ: الإبل والبقر والضأن والمعز.

بَالِغَ الْكَعْبَةِ: واصل الحرم فيذبح به.

عَدْلُ ذَلِكَ: معادل الطعام ومقابله.

وَبَالَ أَمْرِهِ: ثقل فعله وسوء عاقبة ذنبه.

ومن أركان الحج والعمرة أن يرتدي الحاج أو المعتمر ملابس الإحرام الخاصة عند حدود الميقات المقررة ، قبل التوجّه إلى الكعبة ، وفي أثناء رحلته نحو الكعبة كثيراً ما يشاهد المُحرْم حيوانات البر والطيور وهي تقع في متناول يده، ويكون اقتناصها في غاية السهولة ، غير أن اقتناصها ، سواء أقام به المرء بنفسه أم ساعد غيره عليه ، كلاهما محظور ومحرّم في حالة الإحرام ، وقد نزلت هذه الآية - كما جاء في الروايات - خلال مسيرة الحديبية ، إذْ كان المسلمون مُحرمين بقصد العمرة ، وكانت أسراب الطيور والحيوانات البرية إذْ ذاك تمر من أمامهم، فكان من السهولة اقتناصها بالسهام أو طعنها بالرماح ، وكان المسلمون يطمعون - في ذلك الوقت - في الاصطياد بحكم عادتهم وضرورتهم معاً، ولكن حين نزل الحكم الإلهي بالتحريم ، أمسك الجميع أيديهم عن ذلك ، وهذا الحكم الذي ورد بشأن معاملة الحيوانات في حالة الإحرام مطلوب عند التعامل مع الناس في الحياة اليومية ، والمقصد الأصلي من هذا الحكم هو: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ ، فقد وضع الله الإنسان في هذه الدنيا ، وارتفع بذاته المقدسة عن

مواقع أبصاره؛ وذلك لكي يختبر الناس ؛ فيتميز منهم البصير العارف بالحقيقة ، الذي يعيش في الدنيا كما لو كان يرى الله تعالى متجلياً أمامه بكل قدرته وجلاله وجبروته ، عن الغافل المستهتر منهم ، الذي يخلو قلبه من خوف الله لأنه لا يراه بعينيه ، فيقضي حياته تبعاً لأهوائه ونزواته .

وهذا الاختبار الذي يجري في رحلة الحج لبضعة أيام مع اهتمام بالمعاملات وبالعلاقات الإنسانية المتبادلة كل اليوم ، فقد يصادف أحد الناس بعض خصومه في موطنٍ يتمكن فيه من أن يسطو به ويجهز عليه ، أو يُلحق به خسارةً ماليةً فادحةً ، أو يهتك ستره ويشوه سمعته ، إلخ ، ففي مثل هذا الموطن ينقسم الناس إلى نوعين : نوع يشعر بمخافة الله ، فلا يستخدم يده ولسانه ضد خصمه رغم تمكنه منه وتمام قدرته عليه ، والنوع الآخر الذي حين تسنح له فرصة التغلب على أحد يوماً يهينه ، ويتخذ منه عرضةً أو ضحية لقهره واضطهاده ، وقد أثبت أول هذين أنه يخاف الله بالغيب ، بينما الأخير أثبت عكس ذلك تماماً ، وإن للأول عند الله نعماً كثيرة لا تُحصى ، وللأخير عذاباً أليماً لا يُطاق !

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

وَلِلسَّيَّارَةِ: للمسافرين.

الْبَيْتَ الْحَرَامَ: جميع الحرم و المراد الكعبة.

قِيَامًا لِّلنَّاسِ: قواما لمصالحهم دينا ودنيا.

وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ: الأشهر الحرم الأربعة.

وَالْهَدْيَ: ما يهدى من الأنعام إلى الكعبة.

وَالْقَلَائِدَ: ما يقلد به الهدي علامة له .

إن الاصطياد في حالة الإحرام حرام ، غير أن الذين يسافرون إلى بيت الله عبر الطريق البحري ، قد أبيح لهم صيد الماء وأكله ،وذلك لأن حظر الاصطياد لم يكن محرماً لذاته ، بل إنما كان لأجل «الاختبار» وكفى ، حيث قرر الله بعض الأشياء بصفةٍ رمزية ، ليختبر الإنسان من خلالها ، ولذا فلما رأى الشارع أن الشيء الذي لأجل الاختبار ، قد يصير في موضعٍ ما ، مدعاةً للحرج والمشقة على العباد بدون لزومٍ ، تُنوول القانون هناك بالتخفيف والتيسير ، فإن المرء إذا نفد زاده ، وهو يسافر عن طريق البحر ، فلا سبيل إلى الإبقاء على حياته ، سوى أن يستمدّ غذاءه من الحيوانات المائية !

إن الكعبة هي المركز الدائم للإسلام وأهله ، ولقد ربط الله كل فردٍ مسلمٍ بمركزية الكعبة من خلال جعْل التوجه نحوها شرطاً لابد منه للصلاة ، ثم اتخذ منها مكان اجتماعٍ إسلاميٍ عالميٍ في شكل فريضة الحج. إن تعظيم الشعائر المقررة في سياق زيارة الكعبة – كالهدي والقلائد وغيرهما – لا يرجع كونها تتمتع بأية قدسية ذاتية ، ولكنها بمثابة علاماتٍ لامتحان المرء ، فالعبد حين يقوم بتنفيذ أوامر الله بالنسبة لتلك الشعائر، يجدّد شعوره بالحقيقة القائلة بأن الله وإنْ كان لا يُرى جهرةً وعياناً موجود حيّ ؛ يأمر وينهى ما يشاء، وأنه يرصد ويراقب حركات العباد وسكناتهم كلها ، وأنه خبير ، لا بما نقول وما نفعل علانيةً وحده ، بل وبما نُسر ونضمر في صدورنا ، وهذه المشاعر والأحاسيس تخلق في نفس المرء الخشية من الله ، وتؤهله ليمارس حياته كعبد صادقٍ ومخلصٍ لله على كل المستويات وفي كل الظروف والأحوال.

ومن نقائض الإنسان ومظاهر ضعفه وقصوره انخداعه بالضخامة العددية ، ووفرة الأسباب الظاهرية ، فيعلق عليها الأهمية الكبرى ، وبالتالي يقف إلى جانب أصحابها ، غير أن العبرة عند الله بالنوع والكيفية ، ولا عبرة عنده تعالى بالمقدار والكمية، فيزعم الذين يندفعون وراء ((الكثرة)) متخلين عن ((القلة)) غير مبالين بها، يزعمون أنهم عقلاء محنكون ، ولكنهم على أعظم جانب من السفه والغباوة وفساد العقل ؛ إذْ إن الناجح حقاً هو الذي يحدد موقفه مراعياً لخشية الله ، وليس مراعياً للمخاوف الدنيوية الزائلة ، والمصالح المادية الرخيصة !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

بَحِيرَةٍ: الناقة تشق أذنها وتخلى للطواغيت إذا ولدت خمسة أبطن آخرها ذكر.

سَائِبَةٍ: الناقة تُسيب للأصنام لنحو برء من مرض أو نجاة في حرب.

وَصِيلَةٍ: الناقة تترك للطواغيت إذا بكرت بأنثى ثم ثنت بأنثى.

حَامٍ: الفحل لا يركب ولا يحمل عليه إذا لقح ولد ولده.

حَسْبُنَا: كافينا.

عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ : ألزموها واحفظوها من المعاصي.

وتُفيد الروايات بأنه لما نزل الأمر بوجوب أداء الحج ، أذن رسول الله ﷺ في الناس فقال : ((يا قوم : كُتب عليكم الحج)) فقام رجل من بني أسدٍ فقال : ((يا رسول الله! أفي كل عامٍ؟)) فقال : ((والذي نفسي بيده ، لو قلت : نعم ، لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، فاتركوني ما تركتكم ، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا!)) [١] .

إن أسلاف كل أمةٍ يكتسبون حيثيةً مقدسةً على مر الزمن ، وأكثر ظواهر الضلال والانحراف تنشأ باسم الأسلاف ، إذْ يتمسك الأخلاف بكل عادةٍ منسوبةٍ إليهم على علاّتها، ولا يبرحون يُعيدونها من غير وعيٍ ولا حاجةٍ إلى إعمال الفكر والتعقل ، حتى ولو كانت تلك العادة تتعلق بتعظيم الشاة والإبل !

إن التقاليد والعادات الفاسدة التي تقوم على تقديس الماضي ، تكون جذورها متأصلةً وراسخةً في نفوس القوم لدرجة أن صرفهم عنها يكون أمراً عسيراً ومتعذراً للغاية ، فلا يمكن التحرّر والانفكاك من أسْر التعقيدات النفسية ، إلا إذا امتلأ قلب المرء باليقين الجازم بأنه سيحضر نهائياً أمام ربه للحساب ، فمثل هذا الشخص لا يلبث أن يعترف بالحقيقة التي يجد كل شخصٍ نفسه مضطراً إلى الاعتراف بها بعد الموت ، ولكن الاعتراف يومئذ لن يغني عن أحدٍ فتيلاً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الأول ، ص ٥٥٤ ، ٥٥٥.

عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ: سافرتم فيها.

لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً: لا نأخذ بقسمنا كذبا عرضا دنيويا.

الأَوْلَيَانِ: الأقربان إلى الميت الوارثان له.

وإذا كان رجل في سفر، ومعه مال وحان أجله في الطريق، فإن وجد فيما حوله إذْ ذاك رجلين من المسلمين، فليدفع إليهما ماله، مع الإيعاز إليهما في شأنه ما يريد، وأما إذا لم يتواجد هناك رجلان من المسلمين، فله أن يفعل ذلك مع رجلين من غير المسلمين، وهذان يقومان بدورهما بدفع المال إلى ورثة المتوفى، وإن كان بيان الشاهدين مظنة شكٍ لدى الورثة، فليوقفوهما في المسجد بعد أية صلاةٍ، ويستحلفوهما أمام جمعٍ من المسلمين على أنهما قد أدّيا الشهادة على وجهها من غير تبديل ولا خيانةٍ، وإن لم يقتنع الورثة بهذا البيان المدعوم بالقسم، فليقم رجلان من أنفسهم، وليحلفا بالله لصالح دعواهم، ثم يقضى الأمر بعدئذ اعتباراً بشهادة الأخيرين، إن إعطاء هذا الحق للورثة، بمثابة سدّ باب الخيانة دون الخائن، إذْ لولاه لما منعه شيء عن التصرف في مال الموصي ووصيته، كيفما شاء.

إن من المصالح المودعة في الشريعة الإسلامية أنها تقدم أحكاماً لا يقتصر دورها على معالجة شئون الحياة اليومية فحسب، بل لها دور تربوي لإعداد المسلم لممارسة حياته الأوسع مدىً على وجهٍ أفضل أو بالأحرى وفقاً لمقتضيات العدل والحق، فأن يتم إيصال تركة الميت إلى المستحقين الشرعيين لها، قضية أسرية واقتصادية، ولكنه جُعل

وسيلةً لتربية الناس على مبدأين هامّيْن : أولهما : مبدأ عدم المحاباة ، يعني أنه ينبغي للناس أن يقفوا دوْماً إلى جانب الحق والحق وحده ، من غير نظرٍ إلى العلاقات والقرابات ، ولا اعتبار إذا كان الحق يوافق هواهم أو لا يوافقه.

والثاني: هو أن ينظروا إلى كل شهادةٍ على أنها شهادة الله ، فكل خبرٍ ألم به المرء عن كثبٍ ، أمانة إلهية ملقاة في عنقه ، لأن المرء إما شاهده بواسطة العينين الموهوبتين له من عند الله ، واختزنه في ذاكرته الموهوبة له من عند الله كذلك ، ويُعْلِم الآخرين به مستخدماً لسانه، وفي هذه الحالة ، فإن المرء سيكون خائناً للأمانة ولا ريب ، إذا لم يحدّث بالخبر على الوجه الذي رآه بعينيه ، واختزنه في ذاكرته.

﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

بِرُوحِ القُدُسِ: جبريل عليه السلام.

فى المَهْدِ: في زمن الرضاعة قبل أوان الكلام.

وَكَهْلاً: في حال اكتمال القوة (بعد نزوله)

تَخْلُقُ: تصور وتقدر.

الأَكْمَهَ: الأعمى خلقة.

لم يلبث المؤمنون بالأنبياء في كل زمانٍ ، أن تسرّب إليهم الفساد والانحراف في العصور التالية ، فقد اختلفوا ديناً بحسب أهوائهم ، ثم عزوْه إلى أنبيائهم ، ولم تكن هناك أية رابطةٍ تصل هذه الشعوب بأنبيائها ، بعد انحرافها عن تعاليمهم الأصيلة ، ولكن كل شعبٍ لم يزل يدعي أنه أمة نبيٍ ، فاليهود ينسبون أنفسهم إلى سيدنا موسى عليه السلام والمسيحيون يدّعون الانتماء إلى سيدنا عيسى عليه السلام فى حين أن الديانة الرائجة عند كلا الشعبين لا علاقة لها بالنبيين الجليلين !

وهذه الحقيقة مستورة في عالم الامتحان الحاضر ، ولكن حين يأتي يوم القيامة ينكشف النقاب عن وجهها ، فيجمع الله سائر أنبيائه مع الأمم التي بُعثوا إليها على صعيدٍ واحدٍ ، ويسأل كل نبي ، وأمته بين يديه ، عن التعاليم التي عرضها على أمته وكيف كانت استجابتها واعتناقها لتلك التعاليم ؟! ، وهكذا سيتم إطْلاع كل أمةٍ بحضرة نبيّها على جوانب انحرافها عن الدين الإلهي الذي جاءها به نبيّها ، وكيف اخترعت بنفسها ديناً مزعوماً ثم نسبته - كذباً وافتراءً - إلى النبي ؟!

ومن أولئك الأنبياء - على سبيل المثال - سيدنا عيسى عليه السلام الذى يمثل الحلقة الوسطى بين خاتم النبيين والأنبياء السابقين ، لقد أُعطي لسيدنا عيسى عليه السلام معجزات استثنائية للغاية ، أما عدد المؤمنين به في زمانه فكان قليلاً جداً ، بينما كان معارضوه (اليهود) يتمتعون بكل أنواع القوة والغلبة الدنيوية ، ولكنهم - على الرغم من ذلك - لم يتمكنوا من الفتك به ، ولا أفلحت محاولاتهم في القضاء على أصحابه .

وبمقتضى هذه المعجزات الباهرة كان ينبغي للناس أن يبادروا إلى الإيمان بما جاء به من دين الله ، إلا أن النتيجة التي ظهرت أن رفضه معارضوه قائلين بأن معجزاته لا تعْدو أن تكون من عجائب السحر والشعوذة ، ومن جانبٍ آخر فإن الذين آمنوا به أول الأمر،لم يلبثوا أن رفعوه إلى مقام الألوهية فيما بعد !!

وفي يوم القيامة سيكشف القناع عن هذه الحقيقة أمام أدعياء الإيمان بعيسى عليه السلام

بأن تلك الخوارق والمعجزات التي جرت على يديه عليه السلام كانت كلها بإذن الله تعالى ، ولم تكن من صنْعه ، وأنه لم ينج من الحبائل التي نصبها له أعداؤه ، ومن الأخطار التى حاولوا توريطه فيها ، لم ينج منها بحيلة أو طاقةٍ من عنده ، بل أنجاه الله من ذلك، والسؤال : إذا أن واقع الأمر هكذا ، والمسيح بنفسه يدلى بشهادته على صدقه أمام ربّه وعلى رؤوْس الخلائق ، فلْيقلْ أتباعه - إذن - من أين جاءهم ذلك الدّين - المزعوم - الذي عزوْه إليه وهو منه بريء ؟!

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

الحَوَارِيِّينَ: أنصار عيسى عليه السلام وخواصه .

مَائِدَةً: خوانا عليه طعام.

عِيداً: سرورا وفرحا أو يوما نعظمه.

على أن نداء الناس للحق واجب يقوم به الداعي ، ولكن تلبية هذا النداء تتمّ دائماً بتوفيق الله عز وجل،إذ لا تزال ثمة عقبات كثيرة حائلةً بين المرء ومبادرته بقبول الدعوة مع كونه قد عرف صدقها بالدلائل والبراهين،ومن تلك العقبات - على سبيل المثال لا الحصر - ظهور الداعي في مظهر بشرٍ عادي ، والحذر من تبدد شمل الحياة القائمة

نتيجةً لاعتناقه الدعوة الجديدة ، والسؤال : عما إذا كان هذا هو الصدق ، فما بال أولئك الرجال الكبار الذين لم يبلغهم الخبر ، أكانوا كلهم محرومين من الصدق ؟! ، إن هذا المنعطف جد خطيرٍ ، حيث تخيم على المرء حيرة تجعله لا يتخذ قراراً حاسماً ، ، وفي هذا المقام يُمده الله – جل شأنه – بنصرته وتوفيقه ، فالشخص الذي يجد الله في نفسه خيراً ، يأخذ بيده ، ويخرجه من وادي الحيرة والارتياب إلى دائرة الإيمان واليقين.

إن الإنسان لا يزال يتلقى رزقه من عند ربّه في كل لحظةٍ ، حتى إن الأرض بأكملها قد جُعلت بمثابة مائدةٍ زاخرةٍ بمختلف ألوان الرزق المتاح للإنسان ، فلماذا قُوبل المؤمنون بالمسيح بتحذيرٍ شديدٍ عندما طالبوا بإنزال الطعام لهم من السماء ، بينما طالب المؤمنون بالمسيح بأن يوفر لهم الرزق بدون الأسباب ، وهذا لا يتفق مع سنة الله ، إذْ لو أزيلت الأسباب كلها ، ففيما سيكون الاختبار؟!

والحقيقة أن حادث ازدهار زروعٍ بهيجةٍ ناضرةٍ في الحقول ، أو خروج شجرةٍ خضراء مثمرةٍ من داخل التراب، معجزة ، ولكننا لا نرى في الواقع معجزة أو خرقاً للعادة؛ لأنها تظهر مقنعة بحجابٍ من العلل والأسباب ، ومن ثم اختبار المرء أن يشاهد الحقيقة ممزقاً الحجاب من فوقها ، وأن يدرك الرزق النابت من «الأرض» بشكل الرزق النازل من «السماء» ، ولو أن شخصاً قال: إني لن أؤمن بالله حتى أراه رأي العين ، فكأنما قال: إنني سأدخل في رحمة الله بدون الامتحان ، بينما هذا مستحيل ، لكونه خلافاً لسنة الابتلاء الإلهية العامة!

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ

عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

سُبْحَانَكَ: تنزيها لك من أن أقول بذلك.

تَوَفَّيْتَنِي: أخذتني إليك وافيا برفعي إلى السماء.

إن القيامة حين تقوم ، فستصبح الحقائق مكشوفة للعيان ؛ بحيث لا يعود المرء بحاجةٍ إلى دليل يدله على الحق والباطل ، فإن جميع البشر سيرون بأعينهم أن كل القوى والطاقات بيد الله تعالى وحده ، وأنه لا شريك له في كونه وحده خالقاً ومالكاً ومعبوداً ومطلوباً للجميع ، وأن كل ما عداه ومن عداه لا يملك شيئاً من القدرة ، ولا أحد سواه جدير بأن يُعبد أو يُطاع ، فإذا توجّه الله إلى رسله سائلاً من الرسالة التي بعثهم بها إلى أهل الأرض فسيكون ذلك سؤالاً عن شيءٍ معلومٍ لدى الجميع ، إذْ الجواب عن السؤال المطروح سيكون واضحاً وصارخاً لدرجة أن صداه يرتفع ويُسمع من محيط القيامة بأسره من غير أن يرفع به أحد عقيرته! ولا يكون هذا التساؤل بين الله ورسله إلا من أجل إشعار الناس بمزيد من الخزي والهوان ، وإعلامهم بأن الدين الذي كانوا قد اصطنعوه باسم أولئك الأنبياء ، لم يكن يمتُّ إلى تعاليمهم الحقيقية الأصيلة بصلةٍ قريبةٍ ولا بعيدةٍ !!

لقد خُلقت هذه الدنيا من أجل الامتحان ، مما اقتضى أن يتمتع كل إنسان بالحرية والاختيار ، فبإمكان المرء أن يعْزو إلى الله ورسله ديناً لا علاقة له بهما ، ولا يزال يزدهر، ويتقلب في النعيم والسعادة ، كما يمكن أن يُثبت أحد جدارته واستحقاقه للجنّة، حتى على أساسٍ من الآمال المزعومة والأماني الكاذبة ، ومن الممكن أن يثير المرء معارك لا

تخدم سوى أغراضه الذاتية وطموحاته القيادية ، ثم يؤكد بأن كل ما يفعله ، عين الدين الإلهي !! غير أن شيئاً من هذا النوع لن يجدي يوم القيامة فتيلاً ، وإنما الشيء الوحيد الذي سينفع المرء يوم القيامة أن يتم اعتباره في نظر الله ((صادقاً)) ، يكون امتحان الأمم في تحقق صدقها وخلاصها في دعوى الإيمان عملياً.

obeikandl.com